# كواليس

بقلم

سمير لوبه

عنــوان الكتاب: كواليس

أسم المؤلف: سمير لوبه

التصنيف الأدبي: مجموعة قصصية

رقم الايـــــداع: 2021 / 11447

الترقيم الدولي: 978 – 977 - 998 - 129- 1

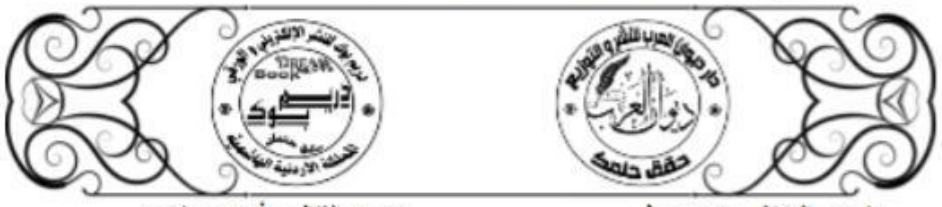

تنسيق الداخلي: ابن معيط

تصميم الغلاف : أيتن صلاح

رسوم داخلية: د.هبة ماردين

ديوان العرب للنشر والتوزيع - مصر - بورسعيد

جوال: 01062765736 - 01221235833

البريد الإلكتروني: ahmedragbmait@gmail.com

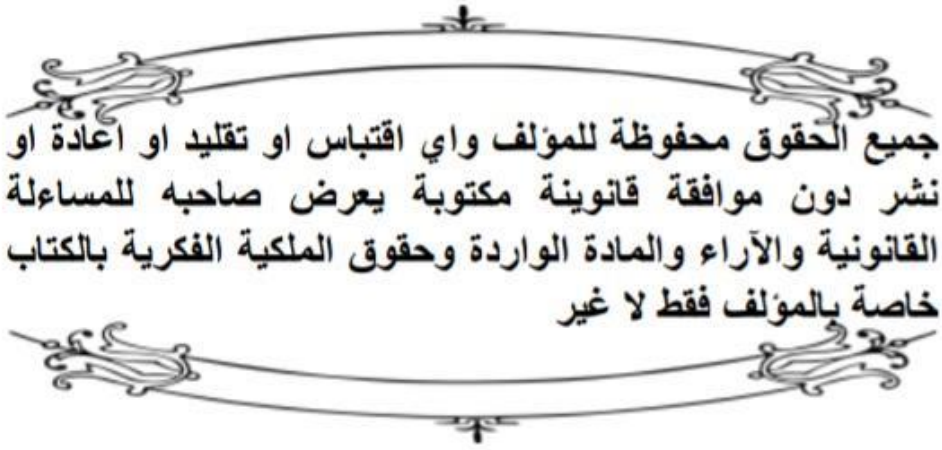

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف واي اقتباس او تقليد او اعادة او نشر دون موافقة قانوينة مكتوبة يعرض صاحبه للمساءلة القانونية والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير

**تقديم :** بين أيدينا مجموعة قصصية تحملُ اسم " كواليس " بداية – وهذا رأي شخصي بالدرجة الأولى – أري من الأفضل عند تناول أي نص لكتابٍ ، أن يكون النص والمحتوي لهذا الكتاب هو بؤرة التناول والطرح والرأي عند الحديث عنه ، ولا شيء سواهُ فلا أسماء أو مذاهب أو مقاربات أو البحث عن أي تناص مشابه له أو حتي أي مصطلحاتٍ أجنبية غير معربة إلا إذا دعت الضرورة ، أقول ذلك سعياً لتحقيق أكبر وأقصى فائدة للكاتب أولاً ، ثم النص ذاته وبنفس القدر للمتلقي ، صدَّر الكاتب في مقدمة كتابه فقرة للفنان المخرج السينمائي الراحل " شادي عبد السلام .. هذا نصها:

" هذه قضيتي ، هي التاريخ الغائب ، الناس الذين نراهم في الشوارع والبيوت والمصانع والمزارع ، هؤلاء الناس لهم تاريخ وساهموا يوما في تشكيل الحياة بل أغنوا الإنسانية ، كيف نستعيد مساهمتهم الإيجابية في الحياة ؟

لابد أولاً أن نعرف من هم ، وماذا كانوا وماذا قدموا ، لابد أن نوصل بين إنسان اليوم وإنسان الأمس لنقدم إنسان المستقبل .. هذه قضيتي " .

وقال الكاتب عن كتابه :

" الرعبُ ضربٌ قديمٌ من الأدبِ يقدمُ حرفةَ الكتابةِ ذاتِها ، وهو يُشكّلُ واحداً من الأعمدةِ الرئيسةِ للكتابةِ الخياليةِ كلاً مع الخيالِ العلمي و الفنتازيا والجريمةِ ، ولطالما كان لهُ مريدوه المخلصون " .

من هاتين الفقرتين يتبين لنا بوجه عام ملامح هذه المجموعة " كواليس " ، فهي من خلال شخصياتها الذين هم في النهاية نماذج ممن ذكرهم " شادي عبد السلام " كانوا وربما أمثالهم لا زالوا موجودين حالياً في حياتنا ، نلمس ذلك من خلال آثارهم وما يتداعى علينا بل ويسكن بعضه في وجداننا وعقولنا وذاكرتنا التي تمتلئ بهذا الموروث الحي أو القابع داخلنا و قد نستحضره أو هي تتجسد فعلا فنلامسها أو قد نراها أحياناً رأي العين ولا نفزع منه ، فهو من موروث الحكي و القص عن الآباء والأجداد والجدات ، أو ما هو مدون بعضه في كتب الأساطير والحكايات القديمة المقروءة أو المشاهدة في وسائل الميديا للكبار والصغار ،

كما نرى الكاتب أيضاً يقفز إلي مساحة لمحها شاغرة من فترة في ساحة الإبداع الروائي والقصصي بعدما ازدحمت واكتظت منصة الإبداع الروائي والقصصي بنوعيات من قصص الخيال العلمي أو الروايات البوليسية أو الراصدة للبيئات الاجتماعية المختلفة وما لحق بها من سلوكيات تخلط ما بين العلم والأوهام والتوقعات المستقبلية بفضل التقنيات الحديثة ، وبعض منها يؤثر سلباً علي القيم والمعتقدات ومن ثم الهوية العربية ، يأتي " سمير لوبه " بذكاء لمحته وإدراكه البصير لهذا

الواقع الثقافي ؛ ليقفز إلي شَغل هذه المساحة الشاغرة لنوعٍ مختلف من الإبداع برصد حالة الناس وأفكارهم ومعتقداتهم وتأثير موروثهم الوجداني والثقافي ، وكان ذلك من خلال قراءاته وبحثه وتغلغله بين ما جاء في وعن الميتافيزيقا والغرائب ، وقد نجح في هذا بملكاته وأدواته الاحترافية ، الكتاب يحتوي على مجموعة قصص قصيرة وهي مجموعة لقطات التقطها الكاتب من مخالطاته للناس وصاغها في إطار راقٍ به جرعة تشويق وغموض ، و في هذه المجموعة القصصية لا يستوقفك فقط " الحدث " أو المشهد أو اللقطة المختارة بدقة وعمق وتكثيف ، ذلك أن وراء كل حدث أو مشهد " فكرة " أو دلالة هي نتاج قراءة جادة في كتب التاريخ والفلسفة والأدب وكذلك الأساطير والمعتقدات الدينية والمذهبية والميتافيزيقا التي انعكست في هذه المجموعة القصصية أو كانت وراء هذا الإبداع النوعي .

وعلي سبيل المثال لا الحصر نعرض لنموذج فقط للتأكيد لما نذهب إليه ، قصة " ميدوسا " هذه الفتاة الجميلة التي تحولت إلي أيقونة للقبح والرعب ، هي قصة لا تقف عند الفتاة و الأسطورة ، و لكنها تشير إلي " الجمال " بوجه عام حين تقتنصه يد الطغيان و الإرهاب و الإزاحة و الرفض للآخر فيتحول " الجمال " جمال الوطن ، جمال الحياة ، جمال القيم ، جمال كل الأشياء من حولنا ، يتحول إلي شيء قبيح ومنفر بل وداعٍ لمحاولة سرعة الإفلات إما بالهجرة داخل الذات أو الهجرة خارجها ولو بعيدًا عن الوطن ، بل ونبذ وعدم الإيمان بفكرة الانتماء لمكانٍ ليس فيه " جمال " أو حرية والانتماء إلي مكانٍ أخر فيهِ الأمن و الأمان " فيه " الجمال " يسكن الأحداق !وهذا ما نجد له تأكيداً في كل القصص ، مثل (القلب الأرجواني ، الغرفة ، عروسة الماريونيت ... إلخ ) .

إن القارئ لهذا الكتاب سيجد نفسه شغوفاً لقراءة ثانية ، و ربما ثالثة ، يدفعه لذلك قراءاته ومخزونه الثقافي ، الذي تملأ هذه الدلالات بعضاً مما هو كامن في هذه النصوص . أخيراً الكاتب يمتلكُ حرفية لغوية من خلال دراسته الأكاديمية ، فهي حرفية ثرية تؤجج النص من خلال المفردات والجمل والفقرات شديدة الحرفية فلا إسهابٍ مُمل أو اختزال مُخل ولا عنترية تعبير فوقية ، وإنما هي سياقاتٍ لغوية تعبيرية دقيقة ، أيضاً الشخصيات وأوصافِها العادية والمشاهد الدافقة في نقل الحدث من مكانٍ وزمانٍ لأخر عبر " ميزانين " حركي شبيه بالمشهد المسرحي كخلفية حوارات معبرة بلا إطالة أو إسفاف تضافراً مع عناصر القصص الأخرى التي يمتلكها و يوظفها التوظيف الجيد ، إن هذا يزيدُ من شغف القارئ إلي التتبع والرغبة في إدراك نهاية الحدث ، فلا يهدأ أو يَملُ قبل أن يعرف ، لكنهُ في الغالب يُفاجأ أن النهاية على غير ما يتوقع تماماً !

سـيـد جـمـعـه

ناقد تشكيلي وأديب

**إهداء :**

إلى رفيقة درب الحياة ... زوجتي

**تنويه :**

تحتوي القصصُ على أماكنٍ حقيقيةٍ ، أمَّا الشخصياتُ فهي خياليةٌ للضرورةِ الدراميةِ ، وأي تشابهٍ بينَ شخصياتِ القصصِ وأي شخصيةٍ موجودةٍ في الواقعِ فهو من قبيلِ الصدفةِ .. لذا وجب التنويهُ

المؤلف

سمير لوبه

**مقدمة :**

هذه قضيتي ، هي التاريخُ الغائبُ ، الناسُ الذين نراهم في الشوارعِ والبيوتِ والمصانعِ والمزارعِ ، هؤلاء الناسُ لهم تاريخٌ وساهموا يومًا في تشكيلِ الحياةِ بل أغنوا الإنسانيةَ ..

كيف نستعيدُ مساهمتَهم الإيجابيةَ في الحياةِ ؟

لابدَّ أولاً أن نعرفَ مَنْ هم ، وماذا كانوا ، وماذا قدموا ، لابدَّ أن نوصِلَ بينَ إنسانِ اليومِ وإنسانِ الأمسِ ؛ لنقدَّمَ إنسانَ المستقبلِ .. هذه قضيتي " .

شادي عبد السلام

**تقديم الكاتب :**

الرعبُ ضربٌ قديمٌ من الأدبِ ، يقدمُ حرفةَ الكتابةِ ذاتَها ، وهو يُشكّلُ واحدًا من الأعمدةِ الثلاثةِ الرئيسةِ للكتابةِ الخياليةِ كلاً مع الخيالِ العلمي والفانتازيا والجريمةِ ، ولطالما كان له مُرِيدُوه المخلصون .

## 1- ( الغرفة )

توقفت الحافلةُ على الكورنيشِ ؛ غادرتُها ، ودلفتُ إلى شارعٍ ضيقٍ ؛ يوصلُني للطريقِ الرئيسةِ ، لا أتبينُ كفَ يدِي ، سيولُ السماءِ لا تتوقفُ ، أحاولُ إيجادَ ملجأ ؛ يقيني شدةَ الرياحِ والمطرِ ، أبصرتُها في ثوبٍ أسود قد صبغَ الشيبُ رأسَها ، تقفُ عندَ مدخلِ بيتٍ قديمٍ ؛ تشاهدُ المطرَ ، فهرولتُ إليها ؛ أحييها وأقفُ لجوارِها في مدخلِ البيتِ ؛ ريثما تهدأ الرياحُ وتتوقفُ الأمطارُ ، فبادرتني بنظرةِ رضا شجعتني أن أسألُها :

- هل لديكم غرفة على سطحِ البيتِ ترى البحرَ تكونُ للإيجارِ ؟

أشارت لي أن أجلسَ على أريكةٍ عتيقةٍ في مدخلِ البيتِ بالكاد أراها ؛ إذ انقطع تيارُ الكهرباءِ فجأة ربما جراءَ المطرِ .

- تفضلْ بالجلوسِ يا أستاذ .. لا تؤاخذْني لانقطاعِ الكهرباءِ ، غداً نصلحُه فلن نجد الآن أحدا يصلحه .

- لا تشغلي بالك عموماً أشكرك .. يا ساتر يا رب النوةُ شديدةٌ الليلة .

- تستطيعُ أن تشرفَنا غداً في ذاتِ الموعدِ ؛ أكونُ قد أعددت لك عقدَ إيجارِ غرفةِ السطحِ ، وأنا متأكدةٌ أنها ستعجبك ، سأنتظرك في مثل ذلك الوقتِ غداً .

- أشكرك .. ها هو المطر قد توقف ؛ سأنصرف وغداً نلتقي .

- مع السلامةِ يا أستاذ .. شرفتنا .

وفي الوقت المُتفَق عليه مساءَ اليومِ التالي .

وصلتُ حسبَ الموعدِ ، فوجدتها جالسةً في الظلامِ على الأريكةِ ، تكادُ عيناها تضئُ في الظلامِ ، جامدةَ القسماتِ ، بادرتني قائلةً :

- لا تؤاخذْني .. لم يأتْنا أحدٌ لإصلاحِ العُطل الكهربيِ حتى الآن ، اتبعْني ؛ كي أوصلَك السطحِ ، الغرفةُ جاهزةٌ لاستقبالِك .

- أرجو ذلك .

صعدت خلفَها ، وأنا أتحسسُ دَرَجَ السُّلَمِ حتى وصلت السطحَ ، لكن ما هذا الصمتُ المطبقُ ؟ أليس في البيتِ سكانٌ ؟ الصمتُ يطبقُ على كلِ شيءٍ ، لا أسمعُ سوى وقع أقدامي فقط ، فينتابني الخوفُ ، و كأني أسيرُ في المقابرِ ليلاً بلا رفيق . فإذا بفتاةٍ في جلبابٍ أبيضٍ فضفاضٍ ، ينسدلُ شَعرُها على وجهِها ؛ لا أكادُ أميزُ ملامحَها ، تلهو بجوارِ سورِ السطحِ المنهارِ ببالونةٍ تُمسِكُ بها ، فناديتُها محذراً :

- حذارِ أن تسقطي .. السورُ منهارٌ هنا ، كيف تتركيها تلهو في الظلامِ في تلك الأجواءِ الباردةِ ، والسورُ محطمٌ قد تسقطُ منه ؟

- لا تنزعج ، تلك حفيدتي تعيشُ معي منذ ماتت أمِها وهي واعيةٌ كفاية للسورِ المحطمِ .

توجهت للفتاةِ بقلبٍ حانٍ كي ألاطفَها ، فانطلقت صوبَ السورِ مبتعدةً عني ، ونظرت لي نظرةً جعلت جسدي يرتعدُ ، نظرة لا يمكنُ أن تكونَ لطفلةٍ أبداً ، يقشعر لها بدني ، فاستدرت لأجدَ وجهَ المرأةِ يكادُ يلتصقُ بوجهِي ، وبلهجة صارمة ونظرة حادة .

- اتفضلْ يا أستاذ ، ها هي الغرفةُ ، ليلتك سعيدة .

دخلت الغرفةَ أقلبُ بصري ، فلا أميزُها جيداً لشدةِ الظلامِ ، فتوجهتُ نحوَ النافذةِ الزجاجيةِ ، ألقيتُ على البحرِ نظرةً ، فإذا بي وكأنني رائدُ فضاءٍ يسبحُ في ظلامِه السرمدي ، لكن فكري مشغولٌ بغموضِ تلك المرأةِ وحفيدتِها ، يجافيني النومُ ، وفجأة يشدني صوت دبيب على السطحِ ،على ما يبدو أنها الفتاة عادت لتلهو ، قررت الخروج لها ، لإقناعها بعدم اللهو في ذلك الظلامِ الدامسِ وتلك الأجواءِ الباردةِ ، وعندما فتحت بابَ الغرفةِ لمْ أجد لها أثرا ..

1. أين اختفت يا ترى ؟!

جال في خاطري أن أنزلَ للجلوسِ على مقهى قريبٍ ، لكن الظلامَ على السلم شديد ، والصمت رهيب ، أشعرُ بأنفاسِ أحدٍ ما ، أكاد أحسُ حرارةَ أنفاسِه على خَدي ، يصيبني الخوفُ فأسرعُ للغرفةِ ، وقد أغلقتُ البابَ أحاولُ أن أتلهى بشيءٍ ينسيني الخوفَ من ذلك الغموضِ ، وقضيت ليلتي منشغلَ الفكرِ ، حتى نشرَ الفجرُ خيوطَه ، فدخلت في نومٍ عميقٍ لم أستيقظْ إلا والظلامُ يلفُ المكانَ ، فقد نمت النهارَ كلَه ، عبثاً أحاولُ لا أجدُ بصيصَ نورٍ فلم يعدْ التيارُ الكهربائي بعدْ ، والصمتُ سيد الموقف ، تسللتُ ببطءٍ وعلى دَرجَ السَّلمِ أشعرُ بذات الأنفاسِ وكأن أحدا ما خلفي ؛ أسرعُ قدرَ استطاعتي ، حتى وصلت بابَ الشارعِ الضيقِ الذي يغطيه الظلامُ ، لمحت ضوءا

خافتا يفترش عتبة دكان صغير ، ولكن كيف لم ألحظْ وجودَ هذا الدكانِ عندَ قدومي بالأمسِ ؟!! .

- مساءُ الخيرِ

- مساءُ النورِ

- هل أجد عندك زجاجةَ ماءٍ ؟

- حضرتك جديدٌ هنا ؟

- نعمْ استأجرتُ غرفةَ على سطحِ ذلك البيتِ الكائنِ أخرَ الشارعِ قُربَ البحرِ .

- أي بيت ؟

- هذا في أخر الشارعِ يساراً

- إنه بيتٌ مهجورٌ منذ سنواتٍ

- كيف ؟!! أنا استأجرتُ غرفة على سطحِ البيتِ من امرأةٍ تعيشُ معها حفيدتُها هناك

- اللهُ يرحمُهما .. منذ سنواتٍ بعيدةٍ كانت حفيدةُ حارسِ العقارِ تعيشُ مع جدتِها ، وفي ليلةٍ شتويةٍ باردةٍ ، انهار على أثرِها جزءٌ من سورِ السطحِ ، كانت قد استندت إليه المرأةُ وحفيدتُها فسقط بهما ؛ ولقيا مصرعَهما ، وظلت أشباحُهما في البيتِ لا تغادراه ؛ فهجر السكانُ البيتَ ، ومنذ ذلك الحينِ ، والبيتُ مهجورٌ ؛ تسكنُه الأشباحُ .

تصعقني المفاجأة :

- يا للمصيبة .. وكيف سأحضر حقيبَتي من غرفةِ السطحِ بعدَ كلِ ما سمعت منك الآن .

- لا تقلقْ هذا وقتُ إغلاقِ دكانِي ، سآخذ مصباحاً ، و أصعدُ معك لإحضارِ حقيبتِك

- أشكرك جداً ولكنني جدٌ خائفٌ

- لا تخفْ معنا مصباحٌ يضئ لنا وربنا يستر

دخلت خلفَ الرجلِ ، تتخبطُ ساقاي رعباً ، الرجلُ مُحِقٌ ؛ أبوابُ الشققِ مغلقةً ، يعلوها الغبارُ ، وخيوطُ العنكبوتِ تملأ المكانَ المشهدُ فعلاً مريع .. مريع جداً .

الآن أدركتُ سرَ الصمتِ الرهيبِ ، وصلنا سوياً للسطحِ ، فوضعتُ يدَي على كتفِ الرجلِ ، أستندُ إليه كي تطمئنَ نفسي ، وعندَ دخولِ الغرفةِ يسقطُ ضوءُ المصباحِ على " بروازٍ " به صورةٌ للرجلِ نفسِه ، وقد تدلى عليها شريطٌ أسودٌ !! أنظرُ إلى الرجلِ فلا أجدُه ، اختفى فجأةً وغاب الضوءُ ...

**2- ( الفنار )**

في إحدى الليالي المقمرة يسير " مراد " على الشاطئ ، تحلقُ خواطره مع نسمات البحر الباردة ، يلمح شخصا يسيرُ بتأنٍ ، وقدْ وضع يديه في جيبِ مِعطفِه وكأنَّه يتبعُ أحداً ما إلى اتجاهِ الفنارِ القديمِ ، يتأبطُ لفافةً تحتَ ذراعِه يتدلى منها شريطٌ أسودٌ ، لم يستطعْ مراد أن يمنعَ نفسه عن متابعته . الصمت يطبقُ على الشاطئِ إلَّا من صوتِ حبو أمواجٍ صغيرةٍ تضمُّها رمالُ الشاطئِ إلى حِضنها في حنو فتنفلت من أحضانها متراجعة لتمتزج بموجة جديدة ، يدفع الفضول مراد أن يجلسَ معه ، فإذا بالرجل وعلى غيرِ توقعٍ يستديرُ إلى مراد فجأةً يخترقُه بنظرةٍ ينبعثُ منها وميضٌ أربكه ، يطيلُ النظرَ إليه ولا يحيدُ بعينيه المتحجرتين عن مراد ، الذي بدا عليه الارتيابُ والارتباك ؛ يلقيه مراد بتحية تغلفها ابتسامةٌ فاترةٌ

- مساءُ الخيرِ

يصمتُ الرجل برهةً ؛ يتفحصُ مراد بعينين لامعتين كعيني ذئب جائع ؛ يتملك مراد القلقُ فيقتربُ من الرجل الذي يجيب بصوتٍ باردٍ :

- مساءُ النورِ
- أرجو ألَّا أكونُ قد اقتحمت عليك خلوتك وسببت لك الإزعاج
- لا عليك ( قالها الرجل ببرود أحرج مراد )

ومضى الرجل يسيرُ على ذات الوتيرةِ ، يتجهُ صوبَ ممشى الفنارِ القديمِ تاركا مراد الذي يلح عليه فضوله إلحاحا ، فانساقُ خلفَه غيرَ عابئٍ بشيء ، فإذا بالرجل على ممشى الفنارِ القديمِ يتجه إلى بابه ، يتوقفُ مراد مكانه تحدثه نفسه :

- يا تُرى إلى أينَ يذهبُ في مثلِ تلك الساعةِ ؟! المكانِ موحشٍ ، والفنارُ ذاتُه مهجورٌ .

يستمر مراد في متابعته بعينيه بينما يلح عليه سؤال في نفسه

- ما تلك اللفافةُ التي يتأبطُها تحتَ ذراعِه ؟!!!

تنطلق عينا مراد تسبحُ في ظلامِ الأفقِ البعيدِ ، يحس بأنفاس أحد ما خلفه ؛ يلتفت فلم يجد شيئاً ، وإذا بكفٍ حانيةٍ تربتُ على كتفه ؛ ينتفضُ مذعوراً وكأن تيار كهربائي يسري في أعصابه يصل إلى نهاية كل شعرة في جسده ؛ وبلسانه يبلل شفتيه اللتين جففهما الخوف ، يلتفت فلم يجد أحدا في المكانِ سوى الصمتِ المطبقِ والظلام ، وفي تلك اللحظة يدفع البحر برياح شديدة تحمل صوت بوق بوسيدون ، يهرول مراد ؛ تتعالى أنفاسه ؛ تضطرب ضربات قلبه ؛ فهناك وقعُ أقدامٍ خلفه تصطك له أسنانه ؛ يديرُ وجهه فقط صمتٌ وظلامٌ ، يتجه إلى باب الفنارِ تتهدج أنفاسه ، حيث ضوءٍ هزيلٍ قدْ امتدَّ من مصباحٍ معلق على بابِ الفنارِ تعبث به الرياح فلا يستقر ، يلمحُ الرجلَ يسدُ بابَ الفنارِ يتحدثُ لأحدٍ ما بالداخلِ يغطيه الظلامُ المعتمُ تمتدُّ يده من جوفِ الفنارِ المظلمِ ؛ تأخذُ اللفافةِ من الرجل ، يسيرُ مراد بتروٍ نحوَ الرجل ؛ ربَّما استطاع أن يكسبَ وده فيأنس به في طريقِ العودةِ ليخرج من ذلك المكان المُريعِ ، يستدير الرجل لمراد فجأةً يخترقه بعينين متحجرتين يعلوهما غضبٌ ، وإذا بصوتِ بابِ الفنار يغلق فجأةً ، ينتابُ مراد حرجٌ يخالطه الارتيابِ في أمرِ الرجلِ ، يبادره مراد بابتسامةٍ باهتةٍ :

- أليس للشاطئ مخرج آخر ؟

يجيبه الرجل بوجه عابس :

- لا

يتملكُ مراد الخوفُ ، يحاولُ التظاهرَ بالتماسكِ ، فإذا بأنفاسٍ حارةٍ خلفه ؛ ترتعدُ أوصاله ، يخشى أن يلتفتَ ، فإذا بكفٍ تربتُ على كتفه ؛ ينتفض فزعا ؛ يسرع نحوَ الرجلِ ، فيجد بابِ الفنارِ مغلقٌ ، والرجل قد اختفى ؛ يندفعُ نحو البابِ يدفعُه فلم يُفتحُ ؛ يطرقُ البابَ بهلعٍ ، فإذا بكفٍ غريبة على كتفه ؛ يصرخُ ويطيح على الممشى ، فيرى شيخاً مسناً في ثيابٍ رثةٍ يمدُّ يدَه له ، يتصببُ جبين مراد عرقاً ، وبصوتٍ خفيضٍ :

- ماذا جاء بك إلى هنا في ذلك الوقتِ المتأخرِ؟

اطمأنَّ مراد للشيخ المسن و روى له ما حدث ، والشيخ مندهشٌ لحديثه :

- هذا غيرُ ممكنٍ بابُ الفنارِ مغلقٌ تماماً ، أنا حارسُ المكانِ منذ زمن بعيد ، ولم يفتحْ البابَ منذ تمَّ إغلاقُ الفنارِ .

تزيدُ كلماتُ الحارسِ فزع مراد ، هل يُعقلُ أن يكونَ ما رآه شبحا ؟

يلفتُ انتباهه فجأةً تأبطُ الحارسِ لذات اللفافةً التي يتدلى منها شريط أسود ؛ تتملكه الحيرة :

- لا تؤاخذْني ما تلك اللفافةُ ؟!

يجيبُه الشيخ المسن وقد ارتسمت على وجهِه مسحةُ حزنٍ :

- تلك صورةٌ مرسومةٌ لشقراء جميلة ، وجدتها بجوارِ النافذةِ أعلى الفنارِ ، يومَ تسلمت عملي هنا منذ سنين طويلة ، يُقالُ أنها لفنانٍ أضناه العشقُ والعوزُ أن يظفرَ بمحبوبتِه فألقى بنفسِه من النافذةِ أعلى الفنارِ ولقى حتفَه منتحراً ، ومرت السنواتُ ولا تزالُ بحوذتي و الفنارُ صار مهجوراً ، وقلَّما تجدُ إنساناً يأتي إلى هنا .

يطلبُ مراد من الحارسِ أن يصحبَه للخروجِ من ذلك الشاطئ ، بابتسامةٍ يجيبه :

- لا تخش شيئاً ، سأصحبُك إلى الخارج

يستندُ الشيخ إلى ذراعِ مراد ، يطبقُ الصمتُ على الشاطئِ إلَّا من صوتِ أنفاسِ الشيخ المسن ، وما أن وصلا للخارجِ حتى اختفى كل أثر للشيخ المسن أيضا ، يتصببُ جبين مراد عرقاً ؛ ينطلق مسرعاً ترتعدُ فرائصه فإذا بضوءٍ ساطعٍ ينبعثُ من سيارةٍ قادمةٍ على مهلٍ ، تتوقفُ جانبَ الطريقِ ، تخرجُ منها امرأةٌ شقراء تتهادى مثل مهرة سماوية في رشاقة ، تتقدمُ نحو مراد الذي وقف لالتقاط أنفاسه ، وما أن وقفت أمامه حتى سألته بصوتٍ عذبٍ رقيقٍ مثل فراشة :

- من فضلِك كيف أصلُ للفنارِ القديمِ ؟

تماسك مراد أمامَها وبدا له خلال الصمت الذي يلف المكان وكأنها بين ذراعيه تتوسد صدره ، وما كاد أن يجيبها حتى رأى تحتَ إبطِها ذات اللفافةً التي يتدلى منها شريطٌ أسودٌ ..

## 3- ( رأس تمثال )

في ليلة مقفرة شديدة الظلام ، وبينما أسيرُ في شارع لاجيتيه بالإبراهيمية ذلك الحي العريقِ الذي كان يوما يعجُ باليونانيين والطليان ، تقعُ عيناي على لافتةٍ قديمةٍ كُتِبَ عليها " أنتيكات " تشيرُ إلى شارعٍ جانبي . انقطاعٌ تيارِ الكهرباء يزيد من ظلامه . فقط ضوء خافت يفترش الرصيف أمام بابِ دكانٍ مازال مفتوحًا ، يبتلعُني ظلامُ الشارعِ الجانبي ، يسودُ الصمتُ المكانَ ، أتوجهُ نحوَ الضوءِ الهزيلِ ، فإذا به معرضِ الأنتيكاتِ ، رأيته جالساً إلى مكتبِه على ضوءِ شموع ، يعتمرُ قبعةً ، ينفثُ دخانَ غليونِه ، أخطو برويةٍ وحذرٍ ، ألقي التحية فيردها من مكانه لم يغادره . أشعر أن الهواء داخل الدكان الكبير مختلف كلياً عن الهواء في الخارج ، كان هواءً فاسداً اعتقد أنه ناتج من الأنتيكات القديمة وكذا جدران الدكان كئيبة فشعرت للوهلة أن الهواء نفسه كان كئيباً . يجذبُني تمثالٌ إغريقي لرأسِ إنسانٍ غائر العينين ، قد وُضِع في ركنٍ مظلمٍ أستطيعُ أن أراه بوضوح الآن بعد أن اقتربت منه بمسافة كافية ، فكان له أثر غريب في نفسي ، أستديرُ فإذا بوجه التاجرِ يكاد يلتصق بوجهي لم أشعرْ بخطواته ؛ ينتابني اضطراب ممزوج بالرهبة :

- هل تلك الرأسِ أصلية ؟!
- وصلتني مع أنتيكاتٍ اشتريتها من الڤيلا التي بجوار الكنيسة .
- أليست تلك الڤيلا التي وجدوا فيها المرأة اليونانية مقطوعة الرأس ومفقوءة العينين ؟ أتذكرُ تلك الحادثةَ التي كانت حديثَ الإسكندريةِ وقتها .
- فعلاً وقد باع الورثةُ مقتنياتَها ، وأخبرني أحدهم أن لتلك الرأسِ حكاية عجيبة .

• شوقتني أن أعرفها .

وبالفعل أخبرني التاجر أنَّ الرأسَ يرجعُ لشاعرٍ إغريقي أحبَّ فتاةً من بلدتِه قد شغفت حاكمَ البلدةِ حباً ؛ ففقأ عيني الشاعرِ وقطع رأسَه ، فكانت رأسُ الشاعرِ تظهرُ للفتاةِ ؛ تنشدُها قصائدَ الحبِ فتسير في شوارع البلدة وترددها ، وفي يومٍ ما وجدوا الحاكمَ مقطوع الرأس وقد فُقِئت عيناه وإلى جوارِه تمثالُ رأسِ الشاعرِ ، فصارت الرأس أسطورةً للغرامِ والانتقامِ عند الإغريقِ قديماً .

• أسطورةٌ جذابةٌ فعلاً ، لكن من المؤكدِ أنَّ الرأسَ غيرُ أصلية ، وتمَّ تقليدُها بإتقانٍ

• فعلاً ولكنها تبدو وكأنَّها قطعةٌ أصليةٌ

• قد اشتريتُها

أعودُ لبيتي تغمرُني السعادةُ ؛ لاقتنائي تلك القطعةِ ، وقد انشغل ذهني بتلك الأسطورة . الليلةُ شديدةُ البرودةِ وحاجتي للنومِ باتت ملحةً ؛ أضعُ الرأسِ لجوارِ سريري وكلما نظرت إليها تنتابني رجفة لا أعلم لها سببا . أسلم جسدي للنوم ؛ فأرى في نومي أنني في جبلِ " الأوليمب " ليلاً ، أسيرُ حافياً في ضوءِ القمرِ ، على ذلك البلاطِ الحجري ، تصطفُ أعمدةُ المعابدِ تتوسطُها تماثيلُ آلهةِ الإغريقِ ، فإذا بشابٍ يجثو على إحدى ركبتيه ، ممسكا بكفي فتاةٍ ممشوقةِ القوامِ مرمريةِ الجسدِ ، ينشدُها قصيدة حب ، ثم ينهضُ ليلفَها بذراعيه في حنوٍ ، ويقبلُها قبلةً تأسرُ روحَها

• يا له من مشهدٍ رومانسي غاية في الروعةِ .

تسبقُني خطواتي إليهما ؛ لأجدَ الفتاةَ جاثيةً على ركبتيها ، تحتضنُ ذات الرأسِ ، تسيلُ منها دماءُ تلطخُ رداءها الأبيضَ ، ولا أثرَ للشابِ ، أستديرُ فإذا بالشابِ خلفي مفقوءِ العينين ، تزرفُ منهما الدماءُ ؛ أتعثرُ فأطيحَ أرضاً مفزوعاً ، تشقُ صرختي الفضاءَ الواسعَ ، أنتفضُ من نومي تتلاحقُ ضرباتُ قلبي مسرعةً لهولِ الحُلمِ المزعجِ ، أجلسُ على حافةِ سريري أنظرُ لتمثالِ الرأسِ يتملكُني الذعرُ منه ؛ فقررت أن أعيدَه لتاجرِ الأنتيكاتِ ، وفي مساءِ اليومِ التالي وبينما حلَّ الظلامُ والسكونُ وخلا الشارعُ الجانبي من كلِ أثرٍ للحياةِ ، أصلُ لمعرضِ الأنتيكاتِ ، فإذا بالبابِ مغلق يعلوه غبارُ الإهمالِ ، عليه قفل صدئ ، فإذا بصوتٍ خشنٍ يشقُ الصمتَ المطبقَ :

• أيةُ خدمة يا أستاذ ؟

• جئت لأعيدَ تلك القطعةَ لتاجرِ الأنتيكاتِ اشتريتُها بالأمسِ

• كيف ذلك !! منذ سنوات وجدوا تاجرُ الأنتيكاتِ في معرضِه مقطوع الرأسِ مفقوءَ العينين ، بجوارِه رأسِ تمثالٍ مثل تلك التي بين يديك .

يتملكني الفزع فألقي بالرأسِ أرضاً وأطلق قدمي للريحِ تتلاحقُ أنفاسي ؛ وما أن وصلت بيتي وجلست على حافةِ سريري حتى انقطعُ التيارُ الكهربي ، فإذا بالرأس إلى جواري ..

**4- ( العازف )**

ذات مساءٍ شتوي ، وقدْ توقفت الأمطارُ . حديقةُ الشلالاتِ ، أقطعها سيرًا على الأقدامِ اختصاراً لطريقي في ضوءِ القمرِ ، أسرعُ الخَطوَ ؛ فالسكونُ يسودُها ؛ لا أثرَ فيها لدماءِ الحياةِ ؛ قدْ خلت من روادِها ، تنسابُ إلى مسامعي معزوفةُ " كمان " تأسرُ انتباهي ، فإذا به على كرسي الحديقةِ الخشبي عازفُ كمانٍ مُسن في ثيابٍ رثةٍ ، يضمُّ عليه آلةَ الكمانِ ، تبدو عليه آثارِ الشيخوخةُ ، يظهرُ جلياً على ملامحِ وجهِه ما تطويه نفسُه من شيخوخةِ الروحِ . لا يؤنسُه شيءٌ غيرُ آلتِه ، فقيرٌ وحيدٌ مُنكفئ على نفسِه لجوارِ الشجرةِ العجوزِ على حافةِ الحديقةِ ، ورُغم أنَّ العازفَ لا يُظهرُ أي علامةٍ من علاماتِ الحياةِ غيرَ العزفِ الذي يُغذيه الفقرُ والعزلةِ ، يبادرُني حديثُ نفسي ، وقدْ أبطأت خطواتي ريثَما ينتهي من مقطوعتِه التي تعتريها روحُ الغضبِ ، أسبحُ مع الكوردات والأبعادِ الصوتيةِ ، تأسرُني زخرفةُ النغماتِ ، تدهشُني مهارتُه في استخدامِ القوسِ وانسجامِ مهاراتِ اليدِ اليمنى مع اليدِ اليسرى ؛ مما جعلني أهيمُ محلقاً في السماءِ :

- هكذا هم المُبدعون حتى في أحلكِ لحظاتِهم ولو كانوا على حافةِ الموتِ يتعلقون بطوقِ إبداعِهم للخروجِ من وحشتِهم ومحنتِهم الإنسانيةِ ( أقول لنفسي ) .

وإذا بي أرى في العازفِ المُسنِ تصويراً لأقصى حدودِ الفقرِ والعزلةِ فتنتابُني مسحةُ حزنٍ قد امتزجت بالشفقةِ لحالِه المتردية ، مازال عزفُه يأسرُ روحي ؛ فيجذبُني مثل الفراشةِ للضوءِ ، ينتبهُ لوجودي فيتوقفَ عن العزفِ :

- آسفٌ للمقاطعةِ ؛ عزفُك أبهرني ؛ وأسرتني مقطوعتُك .

ترتسمُ على وجهِه ابتسامةٌ باهتةٌ يغلفُها حزنٌ دفينٌ يملأ روحَه ، يتحسرُ على زمانٍ كان فيه مرغوباً ، والآنَ قدْ صار رُكامًا من الماضي ؛ لا ينتبه لوجودِه بشرٌ :

- لا عليك يا سيدي . كمْ يسعدُني اطراؤك على عزفي .

- في الحقيقة عزفُك رائعٌ ؛ يحلقُ بسامعِه إلى عنانِ السماءِ .

- أشكرُك لذوقِك .

- لا تؤاخذْني . ما الذي يدفعُك للعزفِ في مثل هذا المكانِ الموحشِ و تلك الأجواءِ الشتويةِ لاسيَّما الوقتُ متأخرٌ ؟!!

يجيبُني بصوتٍ خفيضٍ ، وقد سالت دمعةٌ لم يستطعْ منعَها :

- إن كنت من هواةِ الموسيقى أكيدٌ قد سمعت بي . أنا " رمزي جلال " عازفُ الكمانِ الشهيرِ ، كان ذلك في نهايةِ الخمسينياتِ أيامَ كانت مسارحُ وكازينوهاتُ الإسكندريةِ تفيضُ بأرقى الفنونِ .

- تشرفت بك يا فنانُ . حقاً أعلمُ أنَّ الإسكندريةَ كانت وجهةَ الفنونِ .

- بل قل قبلةً لعشاقِ المسرحِ والموسيقى والغناءِ . كان زمناً جميلاً .

- لكنَّ الوقتَ متأخرٌ ، والظلامُ دامسٌ ، والليلةُ شديدةُ البرودةِ ، هل عدت لمنزلِك ؟

- فعلاً قدْ حانَ وقتُ رحيلي .

- هل تعتادُ الجلوسَ في حديقةِ الشلالاتِ ؟

- أنا هنا كلُ ليلةٍ .

- تشرفت بك يا فنانً ، وأكيدٌ سأعودُ مراتٍ عديدةٍ ؛ أمتعُ روحي بعزفِك الراقي .

- أشكرُك . هل تكرمت وأمسكت بيدي لأعبرَ الطريقَ ؟

تأبط ذراعي ، يخطو بأناةٍ وترو ، تتهدجُ أنفاسُه المتعبةُ ؛ أقررُ أن أرافقَه إلى منزلِه ، رافقتُه حتى وصلنا إلى منزلٍ قدْ أنهكته السنواتُ الطويلةُ في حارةٍ ضيقةٍ ، تشتدُ فيها العتمةُ ؛ نتحسسُ موضعَ أقدامِنا ، يزجُّ ببابِ حجرةٍ لجوارِ السلمِ ، بالكادِ يضيئُها مصباحُ جازٍ ، فإذا بأثرِ الخرابِ جلياً ؛ ليس بها سوى سريرٍ ومنضدةٍ صغيرةٍ ، يدعوني للجلوسِ على كرسي وحيدٍ تعلوه نافذةٌ ذات قضبانٍ حديديةٍ يتدلى منها حبلٌ غليظٌ ، يجلسُ على حافةِ سريرِه ، تطوفُ عيناي تتفحصُ المكانَ ، خيوطُ العنكبوتِ تملأ الأركانَ ، الجدرانُ يعلوها غبارُ الإهمالِ ، آلةُ كمانٍ محطمةٌ قدْ كُسِرَ قوسُها ملقاةً

في إحدى الأركانِ ، يبادرُني بصوتِه الخفيضِ ، وقدْ بدا عليه انكسارُ العَوزِ والعزلةِ :

- عفواً ليس لديَّ ما أقدمُه لك .

- لا عليك يا أستاذ رمزي .

يلفتُ نظري صورةٌ قديمةٌ لم يقو غبارُ السنين أن يخفيَ جمالَها ، راقصةُ باليهِ تقفُ ممشوقةً مثل طائرٍ رشيقٍ .

- هل تهتمُ بفنِ الباليهِ يا أستاذ رمزي ؟

يلقي بنظرةٍ حزينةٍ على الصورةِ ، يمسحُ دمعةً قدْ سبقت يدَه إلى خدِه

- تلك التي تراها في الصورةِ هي مقطوعتي التي لم تكتملْ ، جمع بيننا الفنُ ، وتعاهدْنا على الزواجِ ، وذات ليلةٍ عندَ عودتِنا من المسرحِ جلسْنا في حديقةِ الشلالاتِ ؛ أبثُها حبي فتهديَني حناناً ، فإذا بسيارةٍ فارهةٍ ينزلُ منها مخمورٌ يتوجهُ نحونا ؛ يشهرُ في وجهنا سلاحاً ؛ يريدُ أن يأخذها عنوةً فما كان منها إلا صرخةٌ مدويةٌ ؛ ليستقرَ سكينِه في قلبِها ، تسقطُ أمامي صريعةً ؛ على الفورِ قمت بخنقِه لم أفلتْه حتى ألحقتَه بها ، وقضيت زهرةَ عمري في غياباتِ السجونِ ، أبكيها ليلاً ونهاراً ، لذلك تجدُني كلَ ليلةٍ أجلسُ حيث فقدتها في تلك الليلةِ المشئومةِ .

- آسفٌ أن جددت أحزانَك يا أستاذ رمزي .

تتعلقُ عيناي بالصورةِ ، فإذا بعينيها تتبعُني وكأنَّ الحياةَ قدْ عادت إليها ؛ ينتابُني الخوفُ .

- سأنصرفُ يا أستاذ رمزي .

يجيبُني بصوتٍ متهدجٍ :

- لا تنساني أرجوك .

تعتصرُ تلك الكلمةُ قلبي ، أسيرُ في الحارةِ ، أرى ضوءًا هزيلاً قدْ افترش الأرضَ ؛ ينبعثُ من بابِ دكانٍ ، أسيرُ إليه ربَّما وجدت فيه شيئاً من طعامٍ أرسلُه للأستاذ رمزي .

- لو سمحت بعضُ جُبنٍ وخبزٌ ولبنٌ .

- حاضر

- تفضل حسابك . هل أستطيعُ أن أطلبَ منك توصيلَهم إلى الأستاذ رمزي في ذلك البيتِ عندَ ناصيةِ الحارةِ ؟

البائعُ في دهشةٍ :

- أستاذ رمزي !! .. أستاذ رمزي تعيش أنت ؛ وجدناه منتحراً منذ سنين ، والبيتُ الآنَ مهجورٌ .

**5- ( البنسيون )**

في إحدى الليالي الشتوية الباردة منتصف الليلِ ، وقد خلت المقهى من روادِها ؛ غادر الأستاذ سعد المقهى ، وفي الشارع المؤدي للكورنيش ، تدفعه الرياحُ ، يتناثرُ على وجهه رزاز أمواجِ البحرِ المتناثر ، تخترقُ رائحةُ اليودِ فتحاتِ أنفه ، فإذا برجل يجلس على كرسي أمامَ مدخلِ عمارةٍ عتيقةٍ ، ينفثُ دخانَ سيجارتِه ، وقد غطى جسدَه معطفٌ صوفي ، ورأسُه ملفوفٌ بعمامةٍ ضخمة ؛ فسأله سعد إن كان يعرف طريق حجرةٍ في بنسيونٍ هنا فيجيب :

• طبعاً بنسيونُ نجمةِ البحرِ بالدورِ الرابعِ . تفضل يا سعادة البيه . محسوبك سرحان بواب العمارة . أين حقيبتُك ؟

• ليست معي يا عم سرحان ، سأحضرُها لاحقاً

• آسف ، سنصعدُ على السلمِ ؛ فالمصعدُ معطلٌ منذ سنواتٍ

• لا عليك .

صعد سعد السلمَ خلفَ الرجلِ وعيناه تتجولان في المكانِ ، السلمُ باردٌ جداً مظلمٌ بعضُ الشيءِ ، نوافذُ على السلم ذات قضبان حديدية خلفَها ظلامٌ دامسٌ ، أبوابٌ خشبيةٌ عتيقةٌ يتمددُ أمامَها ضوءٌ هزيلٌ ؛ بالكادِ يسمحُ بالرؤيةِ ، صمتٌ يطبقُ على

المكانِ ، يتخللُه صفيرٌ أثرَ الرياحِ ، رائحةُ دخانٍ تملأُ الجوَ ؛ محدثا نفسه : فلربَّما كانت من أثرِ سيجارةِ الرجلِ .

• ها قد وصلنا يقول له عم سرحان البواب ..

أمام باب خشبي ضخم عليه لوحٌ نحاسي منحوتٌ عليه بالعربيةِ والإنجليزيةِ بنسيون نجمة البحر

• اتفضلْ يا سعادة البيه

وما أن فتح الباب إذا برجل أسمر البشرة في جلبابٍ أبيضٍ فضفاضٍ ، له عينان جاحظتان ينظرُ إليه نظرةً متفحصةً

• البيه يريدُ غرفةً يا عم " بشير "

• أهلاً وسهلاً

دخل سعد تطوف عيناه تتفحصُ المكانَ ، أثاثٌ عريقٌ ، إضاءةٌ خافتةٌ في الصالةِ الكبيرةِ ،

• بطاقتُك يا سعادة البيه

• تفضلْ . أين عم سرحان ؟!

• انصرف

• كنت أودُّ أن أشكرَه

• لا عليك .. هو لا يفارقُ بابَ العمارةِ تستطيعُ أن تشكرَه في الغدِ ، كم يوماً تريدُ ؟

• يكفيني أسبوعٌ

• غرفة " 9 " تفضلْ معي

• شكراً

• تصبحُ على خيرٍ يا سعادة البيه

• أشكرُك يا عم " بشير "

أغلق سعد البابَ وانشغل بتفحصِ الغرفةِ ، والتي تطلُّ على البحر ، ولكنَّ الليلةَ شديدةَ البرودةِ ، والرياحُ قويةٌ ؛ وليس من الصوابِ فتحُ نافذةِ الغرفةِ ، تمدد على السريرِ ، يسمع دبيب خطواتِ أحدٍ ما في الصالةِ ، فيفكرُ فيما لو غاب عنه النومُ كعادته ، فلربَّما يخرجُ للصالة يقرأ قليلاً ؛ فهي أكثرُ دفئاً من الغرفة أو ربَّما وجد جليساً يؤنسُه في تلك الأجواءِ الشتويةِ وذلك الصمتِ المطبقِ ، يقطعُ حديثَ نفسه صوتٌ بالصالةِ ؛

فيقررُ الخروجَ من الغرفةِ بحثاً عن صحبةٍ يؤنس بها وحشته ، فإذا بالصالةِ خاليةً تمامًا يسودُها صمتٌ رهيبٌ ، يجلس سعد في أحدِ الأركانِ متعجبًا ؛ تتجولُ عيناه في المكانِ ، ينتابه شعورٌ بأنَّ شخصاً ما ينظرُ إليه ، يكادُ يحسُ أنفاسَه ، وإذ فجأة يجدُ عمَ "بشير" أمامه وكأنَّ الأرضَ انشقت عنه :

• ألم يطاوعْك النومُ يا سعادة البيه ؟

متلعثما لهولِ المفاجأةِ :

• نعمْ يا عم بشير .. هل أعدت لي فنجانَ قهوةٍ من فضلِك ؟

• انتظرْ قليلاً .. الآن تبدأ السهرةُ

• أي سهرة ؟!

• روادُ البنسيون يسهرون كل ليلة يستمعون للموسيقى

فجأةً صوتُ بابٍ يُفتَحُ ، يخرجُ منه رجلٌ مُسِنٌ يرتدي روباً صوفياً ، و نظارةً طبيةً ممسكاً في يدِه عصا يتوكأ عليها ، ينظرُ إلى سعد ؛ فيبادرُه بابتسامةٍ

• مساءُ الخيرِ

• مساءُ النورِ

فجأة تظهر مجموعةِ أشخاصٍ قد أفرجت عنهم أبوابُ الغرفِ ، تطمئنُ نفسه قليلا ، لكن نظراتَهم تخترقُه ؛ فتصيبُه بقشعريرةٍ ، يقطعُ كلَ ذلك دخولُ عم " بشير " فجأةً لا يعرفُ من أين ولم يسمعُ له صوتاً ، وكأنَّ الأرضَ تنشقُ عنه ، يدخلُ حاملاً صينيةً كبيرةً عليها فناجينَ القهوةِ ، ثم يتوجهُ إلى الراديو الخشبي القديمِ ؛ ليديرَه ، فتنسابَ النغماتُ العذبةُ تبعثُ الطمأنينةَ في نفس سعد ، الجميعُ يسمعُ فقطْ ، لا أحدَ يتحدثُ مطلقاً ، يتظاهرُ سعد بالاندماجِ مع الموسيقى ، وكلَّما استدار لهم يجد الجميعُ في صمتٍ ، لا تحيد أعينُهم عنه ، يشعرُ بأنفاسِ أحدٍ ما خلفه يستديرُ فيجد وجهَ عم " بشير" يكاد يلتصق بوجهه يفزعه ، فتزدادُ ضرباتُ قلبه فيقاطعه عم بشير قائلاً :

• ماذا تحبُ أن تشربَ ؟

• قهوةً مضبوطةً

وبينما ينظر إليهم ، وأعينُهم تخترقُه وأفواهُهم مغلقةٌ تماماً ، يستديرُ لعمِ " بشير" فلا يجدُه ..

محدثا نفسه : عجيبٌ أمرُ هذا الرجل !! يظهرُ ويختفي لا أشعرُ به أبداً .

يحاولُ سعد أن يتمالكَ نفسه ؛ ليذيب جبل الجليد فيقول :

• هل تلاحظون رائحةَ الدخانِ

فجأةً يعلو وجوهَ الجالسين غضبا ، ثم ينظرون لبعضِهم البعضَ ، وينصرفون كلاً إلى حجرتِه ، وينقطعُ صوتُ الموسيقى ؛ يستديرُ سعد للراديو فيلمحُ عمَ " بشير" لجوارِه جامدَ الملامحِ ، ينظرُ إليه بعينيه الجاحظتين ؛ فيرتعدَ جسده :

• أين قهوتي يا عم بشير ؟

• نفذ البن . ألن تذهب للنوم ؟ يقولها بشير بغلظة وجفاء .

يشعر سعد بحرجٍ شديدٍ فيقرر أن تكونَ تلك الليلةُ هي الأخيرةُ له في هذا البنسيونِ ، يدخل حجرته محاولاً النومِ لا يطاوعُه النومُ لكثرةِ التفكيرِ في غرابةِ تصرفاتِ هؤلاءِ النزلاءِ ، تزيدُ رغبته في مغادرةِ البنسيونِ مع بزوغِ الصباحِ ، يفيقً من غفوته وقد نشر الصباحُ نورَه فيصعقه هولُ ما يرى ؛ وجد نفسه ممدداً على سريرٍ معدني بدونِ فراشٍ ، آثارُ حريقٌ قديمٌ في المكان كله ، بقايا أثاثٍ محترقٍ ، تعقد المفاجأةُ لسانه ؛ يتخبطُ في مشيته بينَ حطامِ البنسيونِ الذي يبدو عليه آثارُ حريقٍ قديمٍ ، المكانُ مهجور منذ زمن بعيد ، فيطلق قدميه على درجِ السلَّمِ ، يشعرُ بأشخاصٍ تلاحقُه يكادُ يسمعُ أنفاسَهم المتلاحقةَ ، لا يعي كيف وصل لبابِ الشارعِ ، وما أن وقعت عيناه على نورِ الشمسِ يملأ الشارعَ حتى تنفس الصُعداءَ ، يسرع فيصطدمَ بشخصٍ ما :

• مهلاً يا أستاذ .. ماذا يفزعُك بهذا الشكلِ ؟!

يشير له على العمارة قائلا :

( بنسيون نجمة البحر .. عم سرحان !! )

الرجل مندهشا :

• بنسيون نجمة البحر احترق بمن فيه منذ سنواتٍ ، وقد احترق عم سرحان البواب مع الجميع وهو يحاول الإطفاءَ .

## 6- ( عيادة الطب النفسي )

ذات ليلةٍ أتوجهُ لإحدى عياداتِ الطبِ النفسي في إحدى البناياتِ الكلاسيكيةِ العريقةِ في شارع جانبي متفرع من شارعِ " السلطان حسين " المقابلِ للمستشفى الأميري " كلية الطب جامعة الإسكندرية " وما إن دخلت إلى الشارعِ الذي يخلو من المارةِ فإذا بلافتةٍ لعيادةِ طبٍ نفسي ، دخلت إلى البنايةِ العريقةِ وفي الطابقِ الأولِ إذا بالباب مفتوح والعيادة خالية من المرضى ، بخطواتٍ متثاقلةٍ أتوجهُ للجلوسِ على أحد الكراسي ، وفجأةً ينقطعُ التيارُ ، تلمحُ عيناي في الردهةِ المظلمةِ التي تقابلُني عودَ ثقابٍ يشتعلُ فجأةً ليضئ شمعةً لينبعث ضوؤها الهزيلُ ، فإذا به الممرضُ يرشقُني بعينين جاحظتين زائغتين و في إحدى يديه عودُ ثقابٍ وبالأخرى يُمسكُ الشمعةَ ، يخرجُ من جوفِ الردهةِ ، يقتربُ مني ببطء ، ويتركُ عودَ الثقابِ المنطفئ على المنضدةِ أمامي ، ومن خلالِ ضوءِ الشمعةِ الهزيلِ ألمحُ على العودِ آثارَ دماءٍ ، أنظرُ للرجلِ بقلقٍ :

- مساءُ الخيرِ

• مساءُ النورِ

• يتجهُ صوبَ مكتبهِ يثبتُ الشمعةَ أمامَه ، يجلسُ ، تتبعُه عيناي فتبدو ملامحُه مخيفةٌ ، صمتٌ يطبقُ على العيادةِ ، يقطع الصمت نشيج البابِ يفتح ببطء ؛ ينتفضُ مذعوراً ليغلقَه ، ألاحظُ آثارَ دماءٍ على كفيه ، وما إن انتبه لنظراتي حتى جحظت عيناه وأطبق كفيه ، تخامرُني الظنونُ ربَّما خرج من عندِ الطبيبِ ودماءُ جراحةِ مريضٍ على يديه ، ولكن ما علاقةُ الطبُ النفسي بالجراحةِ ؟!! أسألُه

• ألسنا في عيادةٍ للطبِ النفسي ؟!

• نعمْ

وما إن ألقيت بناظري على المنضدةِ أمامي ؛ أتفحصُ بهما عودَ الثقابِ ، فإذا به ينتفضُ مرةً أخرى وقد تعلقت عيناه الجاحظتان بعودِ الثقابِ ؛ يلتقطُه بيدٍ مرتعشةٍ ، وبسرعةٍ خاطفةٍ يتوجهُ إلى الردهةِ المظلمةِ ، صوتُ مياهٍ تنسابُ ، يخرجُ من الظلامِ فجأةً لا أشعرُ بوقعِ أقدامِه ، يجلسُ إلى مكتبِه يقضمُ أظافرَه ؛ يصيبُني الاضطرابُ ، أعودُ لأسألَه

• هل الطبيبُ موجودٌ ؟

يجيبُني بصوتٍ هامسٍ مضطربٍ

• ربَّما يتأخرُ قليلاً .. لا تقلقْ

• أرى العيادةَ خاليةً ؛ قلَّما يلجأ الناسُ للطبيبِ النفسي

• أبداً قد يأتي أحدُهم للعلاجِ الطوعي في العيادةِ وفي كثيرٍ من الحالاتِ يُسمح بالعلاجِ النفسي غيرِ الطوعي عندما يوجدُ خطرٌ على المريضِ أو غيرِه من المحيطين به ؛ فيتمُّ العلاجُ بُناءً على توصياتِ الطبيبِ المُعالجِ دونَ اشتراطِ موافقةٍ من المريضِ بعد أن توصي المحكمةُ بإيداعِ المريضِ مستشفى الأمراضِ النفسيةِ والعصبيةِ

• وما دخلُ المحاكمِ في العلاجِ النفسي ؟ أليست المحاكمُ للنزاعاتِ القانونيةِ ؟

• وفي بعضِ الأحيانِ يتمُّ تحويلُ متهمٍ ليكونَ تحتَ متابعةِ طبيبٍ نفسي

• وما الذي يدفعُ المحاكمُ لهذا ؟

• أحياناً يكون القاتلُ مريضاً نفسياً ، قد يقدم على جريمةٍ دمويةٍ بشعةٍ

• قاتلٌ ؟!!!!

• نعمْ . جرائمُ النفسِ غالباً ما يرتكبُها مختلٌ عقلي تحتَ تأثيرِ هياجٍ مرضي ؛ فيقتلَ ويمثلَ بالجثةِ أيضاً ، يتلذذُ بدماءِ ضحيتِه غيرُ مدركٍ لما يبدرُ منه

يقشعرُ بدني لكلماتِ الممرضِ ؛ أسألُه مدهوشاً

• وهل يعملُ طبيبُنا مع مثلِ تلك الحالاتِ ؟!

يبدو على قسماتِ وجهِه الاضطرابُ ، تتلجلجُ على لسانِه الكلماتُ ، يخفضُ صوتَه وكأنَّه يهمسُ لي فلا يسمعُه أحدٌ رُغمَ خُلوِ العيادةِ إلَّا مني ومنه

• طبيبُنا ذائعُ الصيتِ في العلاجِ غيرِ الطوعي و للحالاتِ التي تمثلُ خطراً على نفسِها وعلى المحيطين بها

• وهل يقابلُهم هنا ؟!

• لا طبعاً .. هؤلاء نزلاءٌ في المستشفى ؛ لا يخرجون إلا بتمامِ الشفاءِ

• وهل يتمُّ إدانتُهم بعدَ الشفاءِ ؟!

فجأةً تجحظُ عيناه ، وقدْ عقد ما بين حاجبيه ، يفركُ كفيه وبصوتٍ عالٍ مرتعشٍ :

• كيف تدينُه المحكمةُ ، وقدْ ارتكب جريمتَه تحتَ تأثيرِ مرضِه النفسي !!

يعتريني القلقُ الممزوجُ بالريبةِ ، أبادرُه بثباتٍ مصطنعٍ :

• مجردُ سؤالٍ لا غيرَ

• انتبه لكلماتِك من فضلِك

• الطبيبُ قدْ تأخر

ينتفضُ واقفاً ، تجحظُ عيناه المذعورتان اللامعتان ، وقدْ بسط راحتي يدِه على سطحِ المكتبِ يرشقني بنظراتٍ حادةٍ :

• ألَّا تصبرُ قليلاً .. قلت لحضرتِك قد يأتي بين لحظةٍ وأخرى

يسودُ الصمتُ فجأةً ، يخترق أسماعي صوتُ نشيج البابِ ، يسرعُ الممرضُ صوبَ البابِ يغلقُه بعنفٍ ، و يلتفت لي بعينين متحجرتين ، ويتجهُ صوبَ الردهةِ يبتلعُه ظلامُها الدامسِ ؛ يتملكُني الخوفُ ؛ فهممت بالانصرافِ ، وما إن اقتربت من بابِ العيادةِ فإذا بيدٍ تتشبثُ بكتفي ، أستديرُ مذعوراً لأجدَ وجهَه يكادُ يلاصقُ وجهي ، وقدْ برزت أسنانُه جراءَ ابتسامتِه الجامدةِ وبصوتٍ مرتعشٍ يقتربُ مني يهمسُ في أذني تفوحُ منه رائحةُ الدمِ

• إلى أين ؟!

أجيبُه مضطرباً

• الوقتُ قدْ تأخر ، ولم يحضرْ الطبيبُ بعدْ

يتأبطُ ذراعي يطبقُ عليه بشدةٍ ، أشعرُ ببرودةٍ شديدةٍ تنبعثُ من جسدِه ، يقولُ لي :

• الطبيبُ على وصولٍ ؛ تستطيعُ انتظارَه داخلَ حجرتِه

يصحبُني إلى حجرةِ الطبيبِ ، يعتريني الهلعُ ، فإذا بالظلامِ الدامسِ يغرقُ الحجرةِ ، يشعلُ عودَ ثقابٍ ويطلبُ مني أن أتمددَ على الكرسي ، وبصوتٍ مرتعشٍ يغلفُه التوترُ

• سأحضرُ الشمعةَ

أجيبُه بابتسامةٍ باهتةٍ ، ترتعشُ شفتاي ، يرتعدُ جسدي ، يخرجُ من الحجرةِ في ترو لا أسمعُ له وقعَ أقدامٍ ، حاولت السيطرةَ على نفسي حتى يصلَ الطبيبُ أو يعودَ التيارُ الكهربائي اللعينُ ، نادمٌ أشدُ الندمِ على حضوري هنا ، فإذا بأنفاسٍ باردةٍ بجواري ، أحاولُ النهوضَ ، فإذا بذراعٍ تبسطُ كفَها البارِدَ على صدري تمنعُني ، أدفعُها مفزوعاً ، فإذا بالدماءِ تلطخُ كفي ، أسرعُ إلى البابِ أفتحُه ، لأجدَ الدماءَ قدْ اختفت ، والرجلُ أمامي تتناثرُ الدماءُ على وجهِه ، يمسكُ الشمعةَ بيدٍ وبالأخرى سكيناً تقطرُ دماً ؛ أزجُه برعبٍ ، وبسرعةِ البرقِ أندفعُ لخارجِ العيادةِ ، أطيرُ على السُلمِ فزعاً ، أصطدمُ بشخصٍ ما في بهوِ العمارةِ ، يتصببُ جبيني عرقاً ، تتسارعُ نبضاتُ قلبي ، وما إن مدَّ يدَه إليَّ حتى عاد التيارُ الكهربائي فجأةً ، يربتُ على كتفي قائلاً :

• اهدأ .. ها قد عاد التيارُ .. هل يفزعُك الظلامُ إلى هذه الدرجةِ ؟!!

بصوتٍ مرتعشٍ وجسدٍ يرتعدُ ، يكادُ قلبي يتوقفُ من الفزعِ ، أشيرُ بيدي إلى السُلمِ

• العيادةُ .. العيادةُ

• العيادةُ مغلقةٌ بالشمعِ الأحمرِ منذ ذبح الممرض الطبيب ، ثم انتحر داخلَ العيادةِ .

## 7- ( الفلوكة )

على الكورنيش يتلهى " سليم " بصفحةِ البحرِ ، فإذا بفلوكةٍ ينشقُ عنها البحرِ ، تخرجُ سابحةً من جوفِ الظلامِ المعتمِ ، وما أن اقتربت من الشاطئ حتى رأى " سليم " شابا في الفلوكة يجدّفُ بهدوءٍ ، تحدثه نفسه :

- هل في مثل ذلك الوقتِ يتنزه أحد بالفلوكةِ ؟!!

وفجأةً يقفزُ الشاب من الفلوكة ، يكشفُ عن ساقيه حافي القدمين يسحبُ الفلوكةَ للرمال ، يسيرُ في خُيلاءٍ وزهوٍ يركلُ رمالَ الشاطئ ، يلتفت خلفَه مِراراً ، يجلسُ بجوار سليم ووجهُه للبحرِ ، تقطرُ المياه من ملابسِه ، لا يعبأ بالجوِ البارِدِ حولَه .. يبادرُه سليم :

- ملابسُك مبتلةٌ والجوُ باردٌ الليلةَ ، ألَّا تخشى على نفسِك ؟

يلتفت إلى سليم وبابتسامةٍ يعلوها الزهوُ والتفاخرُ ، ترتسمُ على قسماتِ وجهِه الوسيمِ فيقول :

- أعتادُ على ذلك ؛ فالبحرُ بيتي وملاذي
- أ صيادٌ أنت ؟

بلهجةٍ تغلفُها العَجْرَفَةُ يجيبُ :

- لا.. أنا أعملُ ما يحلو لي حسبَ مِزاجِي
- ألم تجذبْك حرفةٌ ؟
- أنا لا أهتمُّ . المهمُ مزاجي أنا .
- أ لهذه الدرجةِ ؟!!

بسخريةٍ يضحكُ ، وكلُه زهوٌ وتفاخرٌ

- أتحبُ التنزهَ في الفلوكةِ ؟ لا تقلق لن أطالبُك بأجرةٍ .
- أكيدٌ التنزهُ بالفلوكةِ شيءٌ رائعٌ ، ولكن ليس في مثلِ هذا الوقتِ ، لا سيَّما الجوُ شديدُ البرودةِ
- فليكنْ معلوماً لك ، أفضلُ نزهةٍ فلوكة في تلك الأجواءِ وذلك الوقتِ

وجدها سليم فرصةً لتجربةٍ جديدةٍ - ركوبُ فلوكةٍ في البحرِ ليلاً - تتهادى بهما الفلوكةُ حتى توغلا في الظلامِ وساد الصمتُ المطبقُ ، يتوقفُ الشاب عن التجديفِ فجأةً ، ينظرُ إلى صفحةِ الماءِ يداعبُها بيدِه ، ثُمَ يغمُرُها في الماءِ باحثاً عنْ شيءٍ ما تحتَ الماءِ ؛ مما يصيب سليم بالاضطرابُ ، يستديرُ برأسِه ينظر لسليم بعينين زائغتين ، فتسري في جسد سليم القشعريرةٌ ؛ يدير سليم دفة الكلام في جهة مغايرة ليتحاشى نظرات الشاب المريعة :

- ألم تلتق بمن تحركُ مشاعرَك ؟!

تتغير نظراته وبكلِ خُيلاءٍ وزهوٍ يجيبُ تعلو قسماتَ وجهِه بسمةٌ ساخرةٌ

- البناتُ كلهن أزهارٌ خُلقن لنقطفَهن نشمُّ عبيرَهن ثُمَ نُلقي بهن بعدَ أن نسأمَ منهن ، أستمتع دوما بانجذابَهن إليَّ وخضوعَهن لي .
- كلامُك يذكرُني بالأسطورةِ اليونانيةِ نَركِسوس – Narcissus

بسخريةٍ يضحكُ :

- هل أعتبرُ ذلك مديحاً ؟

• يُشار بتلك الأسطورةِ إلى الغرورِ ، وإليها تعودُ كلمةُ " النرجسية "

• لم أنلْ قسطاً كافياً من التعليمِ ، لكن لي عقلٌ يفوقُ عقولَ الناسِ كلها ، فلا يباريني أحدٌ في الدهاءِ ، لكنني أرغبُ أن أسمعَ منك تلك الأسطورةَ

• تروي الأسطورة أن (نَرِكسوس) قد وُهِب منذ طفولتِه حُسناً وجمالاً لا يُقاوم وكان يزدادُ بهاءً كلَّما تقدم في العمرِ ، وكان مُدركاً لجمالِه وإطلالتِه الجذابةِ و يرى أنَّه جديرٌ بإعجابِ الجميعِ

• أي إنسانٍ وسيم من حقِه أن يفخرَ ويزهوَ بنفسِه

• اسمعْ الأسطورةَ إلى النهايةِ أولاً

• أكملْ

• لم يكنْ " نَرِكسوس " يعرفُ الحبَ ، ولم يكنْ يقيمُ للعواطفِ وزناً ، وأعجبت بجمالِه الحوريةُ " إيكو " فصدَّها وأذلَها كما أذلَّ الأخرياتِ ، فما كان من هؤلاءِ النسوةِ إلَّا أن طلبن من الإلهةِ " أفروديت " أن تُنزلَ عليه لعنتَها ، فما أن رأي صورتَه على صفحةِ الماءِ حتى عشق صورتَه وهام حباً في ذاتِه ؛ يمضي أوقاتَه في النظرِ إلى صورتِه ، يتحدثُ إليها ويتمتعُ بحُسنِ صورتِه على صفحةِ المياهِ حتى ذهب عقلُه ، فكان يستغرقُ كلَ وقتِه في النظرِ إلى صورتِه بافتتانٍ ، إلى درجةِ أنَّه سقط ذاتَ يومٍ في الماءِ وغرق .

بصوتٍ مرتبكٍ وعينين زائغتين يقاطعُه الشاب :

• لقد ظننت أن أهلَ إحداهن قدْ قيدوه إلى حجرٍ ثقيلٍ وألقوه في البحرِ ليموتَ غرقاً

يعبث الشاب بيديه المرتعشتين في الماءِ ، فجأةً يمسكُ بسلسلةٍ حديديةٍ تغطيها طحالبُ البحرِ لطولِ عهدِها تحتَ الماءِ ، يطلبُ من سليم باضطرابٍ أن يسحبَها للسطحِ ، يدهش سليم تلك الرعدة التي تتملك من جسد الشاب الذي زاغت عيناه وشحب وجهه لشدة الخوف ؛ يسحبُ سليم السلسلةَ الحديديةَ وقدْ تعلقت عيناه بها وهي تخرجُ من الماءِ ، وأستمرُ في كلامه مع الشاب :

• النرجسي يبيحُ لنفسِه استغلالَ من يفتنون به ويخضعون لرغباتِه إلى حدِ السخريةِ منهم والتخلي عنهم حتى أنه ..

وإذْ فجأةً تنتهي السلسلةُ الحديديةُ بهيكلٍ عظمي لإنسانٍ فاغراً فاه مقيداً بها ينتفضُ سليم مذعوراً يفلت السلسلة من يدِه ، يستديرُ للشاب فلم يجده وإذا به وحده في الفلوكةِ وسط البحر يحيط به الصمت والظلام .

## 8- ( **بئر مورفي** )

على سريره وقت القيلولة يجافي حمدي النوم يأخذه التفكير في ماذا لو خرج بسيارته بحثا عن مكان هادئ وقبيل الغروبِ يمر حمدي بسيارته أمامَ بوابةِ حديقةِ " النُزْهَة " ، تحدثه نفسه : هذا هو ما أبحث عنه ؛ ينزلُ من السيارةِ يسيرَ على قدميه قليلاً ، وعندَ البابِ ينبهُه الحارسُ

- أمامَنا ساعةٌ فقطْ على الإغلاقِ
- أعرفُ
- أردت فقطْ أن ألفتَ انتباهَ حضرتِك
- أشكرُك

يسيرُ بترو يتملكُه حنينٌ لذكريات براءة ولهو الطفولة والصبا ، يتوقفُ فجأةً عندَ تلك الشجرةِ العجوزِ التي يستديرُ حولَها طريقٌ ضيقٌ ، فيجد نفسه مدفوعاً للدورانِ حولَها ، لا يبتعدُ كثيراً عنْ بوابةِ الخروجِ ، تتقدُ جذوةُ ذاكرته

- هنا درجاتُ سُلمٍ كان ينزلُها ليصل لبئر عميقةً مظلمةً ، قد وضعوا عليها غطاءً من قضبانٍ حديديةٍ ؛ فلا يسقطُ فيها أحدٌ . ينزلَ حمدي درجاتِ السُلمِ ، فإذا بالبئرِ بدونِ غطاءٍ ، يجلسُ على حافتِها رجلٌ مسنٌ في ثيابٍ أنيقةٍ بجوارِه حقيبةٌ جلديةٌ مكتنزة ، يمسكُ في يدِه كتاباً يقرأه :

- مساءُ الخيرِ

بوجهٍ باشٍ وابتسامةٍ باهتةٍ ينظرُ إلى حمدي يتفحصُه بعينين لامعتين :

- مساءُ النورِ

وقف حمدي بجوارِه ينظرُ للبئرِ

- ألم يكنْ للبئرِ غطاءً
- الآنَ حديقةُ النزهةِ مهجورةٌ وقلَّ روادُها
- هذا أدعى أن يظلَّ الغطاءُ موجوداً
- ربَّما ضاع مع سنواتِ الإهمالِ والتغافلِ لتلك الحديقةِ العتيقةِ
- أريدُ أن ألفتَ انتباهَ حضرتِك أن وقتَ الإغلاقِ قدْ اقترب
- أعرفُ .. أنا أعتادُ الجلوسَ هنا للقراءةِ دائماً
- وماذا تقرأ الآن ؟
- MURPHY'S LAW ( قوانين " مُورْفِي " )
- وما فحواه ؟
- " مورفي " أحدُ الذين عملوا على نُظم السلامةِ الحيويةِ ، وإليه يُنسب قانونِ مُورْفِي والذي يقولُ " أنَّ لو هناك احتمالُ حدوثِ خطأ ما فسوف يحدثُ "
- أفهم من ذلك أنَّ احتمالَ سقوطِ أحد ما في البئرِ واردٌ لأنَّها بدونِ غطاءٍ

ينزع نظارته ، يغلقُ الكتابَ بهدوء ، ويضعُه على حافةِ البئرِ بجوارِ الحقيبةِ المكتنزة ، وبصوتٍ هادئٍ يتحدثُ :

- لقدْ عشْت في حياتِي أعَاني الحظَ العثرَ ، وكلَّما خِفْت حدوثَ شيءٍ ما يحدثُ فعلاً

- تعلمْناها منذُ الصغرِ " من يَخَفْ من العفريت يظهر له "

- ربَّما تكونُ قدْ اقتربت ممَّا أعنيه

جلس حمدي يستمعُ إليه غيرَ منتبهٍ للوقتِ الذي يمرُّ ، كان صوتُه هادئاً يتحدثُ و عيناه تنديان بالدموعِ ، وما أن ينتهي من قصةِ مأساةٍ حتى ينتقلَ لأخرى ، يلقي باللومِ كلِه على الحظِ العثرِ الذي لا يفارقُه في حياتِه ، ثُمَ يصمتُ فجأةً .. ثم يعود ليقول :

- ربَّما أثقلت عليك بحديثي ، وأنت غيرُ مطالبٍ بسماعِ مأساتي

- أبدا . لكن علينا أن نُقِرَ بأنَّ كل وقتٍ سيئٍ سيأتي بعدَه أوقاتٌ رائعةٌ ، وكلُ حزنٍ حَتْماً سيخلفُه فرحٌ ، فالعاقلُ لا يقبلُ العيشَ في زمنٍ مضى وانقضى ، ولا يعلقُ حياتَه على الحظِ أبداً

ينتفض واقفاً يصافح حمدي ترتسمُ على شفتيه ابتسامةٌ باردةٌ قدْ خالطتها السخريةُ ، تلمعُ عيناه الجاحظتان وبالسبابةِ يشيرُ إلى وجهه يقولُ :

- أكيدٌ أنت من كنت أنتظرُه هذه المرةِ

لا يفهم حمدي مقصد الرجل مما قاله فيمضي بخطواتٍ متثاقلةٍ و الرجل يتابعُه ، وما أن صعد حمدي درجاتِ السُلمِ الحجري ، فإذا بصوتِ ارتطامٍ قوي ، يستدير مفزوعا فلم يجدْ الرجلِ عندَ البئرِ ، وكتابه بجوارِ الحقيبة على حافةِ البئرِ ، ينادي حمدي فيرتد إليه صدى صوتِه ؛ يتملكُه القلقُ لا سيما الوقت قد تأخر وأكيد تم إغلاق الأبواب تحدثه نفسه :

- من المحتملِ أن ذلت قدما الرجلِ وسقط في البئرِ المظلمةِ ؟

يهرع للبئر يحاولُ النظرَ فيها فإذا بالبئرِ شديدةِ العتمةِ ، يقتربُ برأسِه من البئرِ فيجد الرجل ممدداً على أرضيةِ البئرِ بدونِ حركةٍ ، يتلفت حوله ربَّما وجد أحداً يعاونه ، الليلُ يزحفُ ولا أثرَ لإنسانٍ ، يحاول فتحَ الحقيبةِ فلا تفتح، يبحثُ في الأرضِ عن شيء قد يساعدُه ، الوقتُ يداهمُه الظلامُ يزداد ، يعودُ للبئرِ ينادي الرجل فلا يجيبَ ، وإذْ فجأةً يجد حبلا بجوارِ الشجرةِ العتيقةِ ، يربطه فيها يلقيه فيصدم الحقيبةَ وتسقطَ هي أيضاً في البئرِ وقدْ انفتحت وتناثرت منها عملاتٌ ذهبيةٌ لا حصرَ لها ، يشقُّ وهجُ الذهبِ ظلمةَ البئرِ ، يقفُ مشدوهاً تتسارعُ نبضاتُ قلبه

- لا مفرَّ من التدلي بالحبلِ ، وإفاقةِ الرجلِ

يستجمع شجاعته ، يتدلى بالحبلِ و بصعوبةٍ بالغةٍ يصل لأرضيةِ البئرِ فإذا بصوتِ أنفاسٍ متلاحقةٍ خلفه مباشرةٍ ، يستدير مفزوعاً فلم يجد شيئاً يخرج هاتفه ، فإذا بصوتٍ يناديه من أعلى ، يرفعُ رأسه ، فيجدَ الرجلُ نفسه بابتسامتِه الساخرةِ وعينيه اللامعتين ، يمسكُ بحقيبتِه ، ينتفضُ فزِعاً ، يتملكُه الرعبُ يمسكُ بالحبلِ ليخرجَ ، فإذا بسكينٍ في يدِ الرجل تلمعُ في الظلامِ يقطعُ بها الحبلَ ؛ ليسقطَ داخل البئر ، يصرخُ حمدي صرخةً مدويةً فلم يجيبُه أحد ، يضيئ هاتفه ، تعقدُ المفاجأةُ لسانه ، هياكلٌ بشريةٌ تستندُ لجدارِ البئرِ تحتضنُ كلٌ منها لفةَ حبلٍ مثل التي في يدِه ، يعودُ للصُراخِ ، تتعلقُ عيناه بالسماءِ والرجلُ يجلسُ على حافةِ البئرِ هادئاً يمسكُ كتابَه يقرأه ، يصرخُ ويصرخُ و يصرخُ ، فإذا به في سريرِه وبجواره ذات الكتاب الذي كان في يد الرجل .

**9- ( رسالة البحر )**

في أعقاب النوة وعلى شاطيءِ البحر أسير في صمت فلا أثرَ لصوت إلَّا صوتِ تلاطم الأمواج . رياحٌ بلا قيدٍ . رمال ندية . لمحته يخطو خطواتٍ متثاقلةٍ ؛ يتوكأُ على عصاه . يمحص النظر تحت قدميه يبحثُ عن شيءٍ ما ؛ أخذت أرقبُه بناظري . وما أن انشغلت بإشعالِ سيجارتي حتى وجدته قريبا مني يلفه معطفه ووجهُه للبحرِ في سكون ؛ تتصارعُ الأسئلة في رأسي . ما الذي يغري مُسِناً في مثلِ عمرِه للخروج في مثلِ تلك الأجواء ؟ ! يغريني الفضول أن أبادلَه الحديثَ ؛ توجهت إليه متباطئَ الخطواتِ :

- مساءُ الخيرِ .

يلتفت وبابتسامة وديعة يرد :

- مساءُ النورِ .

- البحرُ رائعٌ الليلةَ رُغم برودةِ الجوِ .

- فعلاً .

- الإسكندريةُ رائعةٌ في الشتاءِ .

- نعمْ .

- أتحب الجلوسِ عند البحرِ ليلا ؟

- ليس دائمًا .

- وما الذي دفعك للجلوسِ عند البحرِ في هذا الجوِ ؟

- لا شيءٍ . مجردُ قتل للوقتِ .

- ربما كان البيت أكثر دفئا .

- أنا أعيشُ بمفردي ، والوحدةُ أشدُ برودةً .

- أليس لديك أسرةٌ ؟

- لي ولد وحيدٌ .

- وأين هو ؟

- يدرسُ الهندسةَ في ألمانيا . بالأمسِ وصلتني رسالةٌ منه بأنَّه قادمٌ على سفينةٍ ، تصلُ ميناءَ الإسكندريةِ اليوم فجراً ؛ فلم أتحملْ الانتظارَ ؛ اشتقت إليه ؛ ليس لي غيرُه في الدنيا بعدَ وفاةِ زوجتي منذ سنواتٍ ، وقد جئت هنا لأقتلَ بشاعةَ الانتظارِ بالتلهي بمنظرِ البحرِ ؛ حتى يأتيَ موعدُ وصولِه .

- أراك كنت تبحث عن شيء ما على الرمال

- محفظتي وفيها رسالة موعد وصول السفينة أظنُها سقطت مني ، وأنا جالسٌ هناك .

- و كيف ستجدها في الظلام ؟!

- سأحاولُ .

- سأذهب معك

- أشكرك يا ولدي .

سرت معه ، يتأبط ذراعي ، نتحسسُ طريقنا على الرمالِ الندية ، يحوطُنا الظلامُ ، يشير إلى المكان ؛ فأخذت أدقق النظر في العتمة حتى وجدتها ، واستدرت فإذا بالمسن خلفي مباشرةً ؛ يقبضُ على المحفظةِ بلهفةٍ ، ونسيرُ على رمالِ الشاطئِ ، ومع زوال السحبُ ، ازداد ضوءِ القمرِ . يناولني الرجل الرسالةِ :

- ها هي .

أمسكتُ بها أدققُ فيها ؛ فلم أجد فيها سوى سطرا واحدا

" نأسفُ أن نخبرَكم أنَّ السفينةَ القادمةَ من ألمانيا قد غرقت جراءَ القصفِ .. الإسكندرية في 19 يناير 1943 "

- 1943 ؟!

ألتفت للمسن فلم أجد له أثرا .

## 10 -( **عربة الحنطور** )

على كورنيشِ البحرِ ينظر عادل إلى الأفقِ ؛ ربَّما يلمحُ بصيصاً من نورٍ، تتراكمُ السحبُ ، تتزاحمُ الذكرياتُ في مخيلته ، وإذْ فجأةً يخترقُ أسماعه إيقاعُ مقادم حِصانٍ يتهادى في رشاقةٍ يجرُّ عربةَ حنطورٍ قادم نحوه في تلك الساعةِ المتأخرةِ من الليلِ ، تحدثه نفسه

- ربَّما النزهةُ بالحنطورِ هي ما أحتاجُه في تلك الأمسيةِ الباردةِ

يشيرُ عادل للسائق تتوقفُ العربةُ ، وما أن جلس حتى انتابه شعورٌ تأنسُ له روحه وكأنَّه قدْ عاد به الزمن للماضي الجميلِ ، معطفٌ ذو أكتافٍ عاليةٍ يحوي داخلَه جسداً نحيلاً لرجلٍ تلفُّ رأسَه عمامةٌ ، يستديرُ إليَّ متسائلا :

- إلي أين يا باشا ؟
- كما أنت على الكورنيش

ينكفئ السائق إلى عربتِه لا تبدو عليه من علاماتِ الحياةِ سوى هزاتٍ خفيفةٍ ناجمةً عن هِزةِ العربةِ ، يحلقُ عادل بخياله في الزمنِ الجميلِ ، فإذا بجلبةٍ تجذبُه بعنفٍ من طياتِ الخيالِ ؛ صبيٌ يافعٌ تنشقُ عنه الأرضُ قادمٌ من الظلامِ ، يتشبثُ بالعربةِ ، يجلسُ إلى جوارِ الرجلِ ؛ يتهامسان ينتبهُ الصبي لعادل ، يرمقُه بعينين زائغتين تعلوهما الريبةُ ، يهمسُ للسائق فيستديرَ بأناةٍ لعادل تبرقُ عيناه الجاحظتان ؛ ينتاب عادل الارتيابُ ويشعرُ أنَّ تدبيرٌ ما يتمُّ بينهما ؛ يرهف السمع ؛ ربَّما فسر كلامهما ، يتبادرُ إلى مسامعه بضعةُ ألفاظٍ متفرقةٍ " ... قدْ نبهتُك.. خذْ حذرَك ..." .

يقفزُ الصبي من العربة يبتلعُه الظلامُ ، لكنَّ ضحكاتَه تتطايرُ إلى الفضاءِ المظلمِ يهزُّ صداها رأس عادل ؛ يتملكُه القلقُ ، وفجأةً تلمسُ كفه كفاً بارداً بجواره ، يشعرُ بأنفاسٍ حارةٍ على خده ، يحاولُ أن يقهرَ خوفه و بصوتٍ متهدجٍ :

- هنا من فضلِك
- حاضر

يصل عادل لمنزله بيتُ ليلته لا يستطيعُ أن ينسى ما حدث ، يحاول أن يلقيه بعيداً ليطويَه النسيانُ ، ولكنَّه يأبى إلَّا العودةَ ليقتحمَ تفكيره الذي يلحُّ عليه إلحاحاً أن يعرفَ سر السائق والصبي وفي الليلةِ التاليةِ وكانت الأمطار قدْ توقفت لتوِها ؛ في حين تشتدُ الرياحُ ، يذهب عادل إلى موقفِ عرباتِ الحنطورِ ؛ ربَّما وجدهما ، يخلو الموقفُ من أي أثرٍ للحياةِ ؛ الصمتُ يطبقُ على المكانِ ، عرباتُ الحنطورِ مصطفةً الواحدةَ تلو الأخرى ، يمشي بجوارها على مَهلٍ ؛ يبحث عن الرجلِ ، فإذا بوقعِ أقدامٍ خلفه ، يديرُ رأسه فلا يجدُ سوى فراغ ، وما أن اعتدل حتى التصق وجهِه بالصبي نفسه تلمع عيناه المتحجرتين في وجهه ؛ ترتسمُ على وجهِه ابتسامةٌ قلقةٌ تشعرُه بعدم الارتياح لظهوره المفاجئ .. يبادرُه

- حنطور يا أستاذ ؟

باضطرابٍ يجيب عادل :

- نعمْ
- تفضلْ

وما أن انطلقت بهما العربة حتى حكى له عادل ما حدث بالأمسِ ، وسألته عن السائق الذي ركب معه ، ووصفه له ، يستديرُ الصبي اليافع إليه وقد عقد ما بينَ حاجبيه تبدو على وجهِه علاماتُ الدهشةِ :

- فعلاً تلك الصفاتُ تنطبقُ تماماً على والدي ، لكنَّه قد مات في عربتِه أثرَ حادثِ تصادمٍ منذ عدةِ أعوامٍ ، أما عن الأمسِ فقدْ عدت لبيتي مبكراً ، ولم أعملْ في تلك الليلةِ التي تتحدثُ عنها ، ربَّما اختلط عليك الأمرُ .
- ربَّما

يدهش عادل مما يسمع ، يحدث نفسه

- مع من ركبت بالأمسِ إذنْ ؟! ربَّما يُخَيلُ إليَّ أو اختلط عليَّ صورةُ الصبي ؟!

فجأةً تسقطُ على كفه قطرةُ دماءٍ ، وما أن تيقن منها حتى اختفت ، يشعرُ عادل بذات الأنفاسِ الحارةِ على خده ، و سقطت قطرةُ دمٍ أخرى على كفه ثم اختفت ؛ يرتعدُ جسده يتملكُه الرعبُ ؛ يهم بالنزولِ ، وبصوتٍ مرتعشٍ :

- من فضلِك قف هُنا

يسير عادل قليلاً ، يلتفت خلفه مراراً ، فيلمح عربةَ الحنطورِ وقد غابت في الأفقِ .. تمرُّ الأيامُ لا يستطيعُ تجاوزَ تلك اللحظاتِ المريعةِ ، ليجد نفسه وقد ساقته أقدامه ذاتَ ليلةٍ إلى موقفِ عرباتِ الحنطورِ ، فإذا به خالياً من العرباتِ إلَّا من حطام عربةٍ على الرصيف يعلوها غبارُ السنين والإهمالِ ، لم يرها من قبلِ ، يركنُ إليها رجلٌ بائسٌ يفترشُ الأرضَ في ثيابٍ رثةٍ ، يقتربُ منه فإذا به الرجلِ نفسِه الذي ركب معه أول مرة ، وقد بدت واضحةً عليه شيخوخةُ الجسدِ والروحِ ، يحاولُ التحدثَ إليه فيجدُه زاهلاً عن الواقعِ يرمقُه بنظراتٍ حزينةٍ ، يعرفُ منه بالكادِ أنَّه صاحبُ ذلك الحطام ، ينصرفُ عادل في حيرةٍ من أمره ، وإذْ فجأةً يخترقُ مسامعه إيقاعُ مقادم حِصانٍ يتهادى في رشاقةٍ ، يجرُّ عربةَ حنطورٍ قادمةً نحوه يتوجه لسائقها متسائلاً عن ذلك الصبي اليافعِ الذي ركب معه ، تبدو على السائق علاماتُ الاستغرابِ ، ينظرُ إلى العربةِ المحطمةِ بشفقةٍ يخالطُها الحزنُ مجيباً :

- تلك عربةُ والدِه ، فقد مات الصبي منذ عدةِ أعوامٍ في العربةِ أثرَ حادثٍ مريعٍ ، ولم يتحملْ والدُه الذي وجدْناه بعدها بأيامٍ ميتاً بجوارِ حطامِ عربةِ الحنطورِ

يستدير عادل مندهشاً ، فلا يرى سوى الحطام .

**11-( الملاحة )**

في طريق العودة أنطلقُ بالسيارةِ ، فإذا بطفلةٍ على جانبِ الطريقِ المتاخمةِ للملاحاتِ تشيرُ بيديها للسياراتِ المنطلقةِ ، تلتقي عيناي بعينيها ، ألمحُ فيهما الفزعَ ،

انطلقت في طريقي لا تفارقُني نظراتُها المريعةُ ، ينشغل تفكيري الطفلةِ ، تحدثُني نفسي :

- ربَّما كانت مصيدةً يختبئ خلفَها لصوصٌ ، كيف تتواجد طفلة في ذلك الوقتِ المتأخرِ وذلك المكانِ الموحشِ ؟!!

مساءُ اليومِ التالي ، وفي ذات الطريق ، يكشف لي ضوء السيارةِ الطفلةَ نفسَها في ذات المكان ، أقررُ الوقوفَ على مسافةٍ آمنةٍ ، وعلى ضوءِ السيارةِ أهتدي ، وما أن اقتربت منها حتى تملكُني الاضطرابُ ، أتلفْت حولي وأقتربُ بحذرٍ ، تسير الفتاة نحوي بتروٍ ، ينسدلُ شعرُها الأصفرُ الزاهي على وجهِها ، تمدُّ أحدَ ذراعيها وتشيرُ بالأخرِ إلى مَدقٍ تُرابي يمتدُّ إلى جوفِ الظلامِ في الملاحاتِ ، تُمسكُ بكفي تجذبُني وتستمرُ في الإشارةِ ، ألمحُ ضوءَ مصباحٍ خافتاً في نهايةِ المَدقِ التُرابي ، الطفلة ممزقةُ الملابس يملأ وجهَها خدوشٌ داميةٌ ، حافيةُ القدمين تسيلُ الدماءِ على ساقيها النحيلتين ، تجذبُني بكلِ قواها للداخلِ

- ماذا بك ؟ ما الذي يجري في الداخلِ ؟

تنهمرُ دموعها ولا تجيبُ ، تستمرُ في جذبِي وتشيرُ للداخلِ ، أشعرُ ببرودةٍ شديدةٍ تنبعثُ من كفِها الصغيرِ ، أحاذرُ في مِشيتي معها ، ؛ يتملكُني شعورٌ بالقلق ، أقولُ لنفسي :

- ربَّما تستنجدُ بي لأنقذَ عزيزاً عليها

المَدقُ يضيقُ كلما توغلنا فيه ، على جانبيه مياهُ الملاحاتِ يغطيها الهيش والبوص ، يطبقُ الصمتُ على المكانِ ، ينبعثُ الضوءُ الخافتُ من داخلِ كوخٍ خشبي شِبهُ مُهدَّمٍ ، وفجأةً تقفُ أمامَ بابِه المتهالكِ ترتعدُ وتزدادُ برودةُ كفِها تشيرُ إليَّ أن أدخلَ بينما تتراجعُ هي للخلفِ ، أمسكُ كفَها فتجذبها من يدِي متراجعةً للخلفِ ، أنظرُ إليها فأجدها ترتعدُ تجحظُ عيناها المذعورتان ، أتركُها كي تهدأ وأدفعُ بابَ الكوخِ بتأنٍ وحذرٍ ، أطوفُ بعيني فيه ، فلم أجدُ أحداً ، أدخلُ مطمئناً على الضوءِ الخافتِ المنبعثِ من مصباحِ الجازِ القديمِ ، فأجد زجاجاتِ خمرٍ فارغةٍ ملقاةٍ على الأرضيةِ بجوارِ فرشٍ رثٍ ملطخٍ بقطراتِ الدماءِ ، وكومةُ ترابٍ في الركنِ المظلمِ ، أستديرُ ، فإذا بالصغيرةِ عند بابِ الكوخِ تضعُ راحتَها على فمِها ، تشيرُ بذراعِها النحيلةِ إلى الكومةِ الترابيةِ ، ينتفضُ جسدي لهولِ المفاجأةِ ، شعرٌ أصفرٌ ذهبيٌ خارجٌ من تحتِ الترابِ ، أمسكُه لأرفعَه ، فإذا برأسِ نفس الفتاةِ الصغيرةِ ، أنتفضُ مذعوراً أناديها :

- تعالي

ينطفئ ضوء المصباح فجأة فأجد نفسي وحيدا في المكان ولا أثر للفتاة .

**12- ( اللسان )**

بعدَ نهايةِ النوةِ يرى " عصام " أنه الوقت المناسب لصيدِ البحرِ ، يعد العدة لمغامرةِ صيدٍ جديدةٍ ، يخرج إلى اللسانِ الممتدِ في البحرِ خلفَ قلعةِ " قايتباي " تلك المنطقةُ في نهايةِ اللسانِ التي تكثرُ الأساطيرُ حولها ، ولكنَّ للعشقِ أحكاماً ، على الرغمِ من البرودةِ الشديدةِ ربَّما قد يجد عاشقاً للصيدِ في تلك الأجواءِ الشتويةِ يؤنسه لا سيَّما الليلُ قدْ انتصف وعليه أن يقضيَ الليل بطوله في الصيدِ ؛ فالرياحُ غربيةٌ ومواتيةٌ للصيدِ .

وما أن وصل إلى قلعةِ " قايتباي " حتي توجه سيراً إلى حيثُ نهاية اللسانِ وشرع يعد البوصةَ ، يربط الأرمة متخذاً أحدَ البلوكاتِ مجلساً ؛ ليرمي منه ، فإذا بشخص يجلس غيرَ بعيدٍ منه قدْ تدثر معطفاً واعتمرقبعةً ؛ فقد تمطرُ في أيةِ لحظةٍ ، ينتاب عصام إحساسٌ بالطمأنينةِ لوجود أحدِهم بجواره ؛ فالمنطقةُ فعلا موحشةٌ ، ومع تقدمِ ساعاتِ الليلِ تزدادُ وحشةً ؛ لكن وجودَ شخصٍ في المكان يبددُ إحساسه بالوحشة ، يمضى الوقتُ ، مَنَّعت معه ولم يظفر بسمكةٍ واحدةٍ ، فيقرر تغييرَ الطُعْمِ ، يلقي بناظريه نحو الرجلِ بين حينٍ وآخر ، يتعجبُ لأمرِه ؛ فهو قابعٌ في موضعِه مثل التمثالِ . يدفع الفضولُ عصام ؛ فينادي على الرجل مُلوحاً بيده ، لكن لا حياةَ لمن تنادي ، يعود لبوصته وكلما صاد سمكةً تنتابه سعادةُ غامرة ويهرع ليضعها في الغَلَقِ ، وإذ فجأة يلمح صبيا صغيرا يجلس بجوارِ الرجل :

• أينَ كان هذا الصبي ؟! لم ألحظْ وجودَه عندما جئت .

وبدافع من فضوله يتنقلُ فوقَ البلوكاتِ بحذرٍ في محاولةٍ للاقترابِ من الرجل حتى كاد أن يطيح في البحرِ ، يتسربُ إلى مسامعه صوتُ نحيبِ الرجلِ و إلى جوارِه الصبي يربتُ على كتفِه ، وفجأةً تعلقُ سمكةٌ تبدو كبيرةً في السنارةِ ؛ فيستعينَ بالملقافِ ليفوزَ بها ، وما أن تمكن منها حتى ذهب ليضعَها في الغَلَقِ ، تغمره السعادةُ يستمرُ في صيده ، ولكن البوصة قد وَعَّرَت واشتبكت بصخرةٍ تحتَ الماءِ يسحبُها فتنقطعَ ، يجلسُ على الكرسي منهمكاً في تركيبِ أَرمَةً جديدةً ، يستديرُ فيجدُ الرجلَ وحيداً ولا أثرَ للصبي ؛ تعتريه الدهشةُ والعجبُ :

• أينَ اختفى الصبي ؟!!

يترك ما في يده ، ويمشي في ضوءِ النارِ الخافتِ التي أشعلها عند وصوله يتوجه عصام للرجل الذي تلقي النار ببعض وهجها على نصف وجهه ليغيب نصف وجهه الآخر في الظلام :

• مساءُ الخيرِ

يستديرُ له الرجل وبعينين تدمعان ، تتساقط منهما دمعات على صورةٍ يتشبثُ بها مخافةَ أن تسقطَ منه في البحرِ ، تزدادُ دهشة عصام وتزداد رغبته الملحةُ في معرفةِ ما يدورُ :

• أينَ الصبي ؟ أينَ ذهب ؟!

لا يجيبُ الرجل وينظرُ للبحرِ ، يعلو نحيبه ، يفترش عصام البلُوكَ بجوارِه ؛ ليعرفَ ما هو فيه ، يسترقُ النظرَ للصورةِ ، فيجدها للصبي الصغيرِ ، يعيدُ سؤاله عن الصبي ، فيرمقُه الرجل بعينين دامعتين وبصوتٍ متهدجٍ يخالطه نحيب شديد و يشير بيدِه إلى البحرِ :

• هنا

ينتفضُ عصام من مكانه فزعاً ؛ فلربَّما أدرك الصبي قبل أن يغرق ، لكن لا أثرَ له ، يلتفت للرجل فإذا بالصبي بجوارِه يربت على كتفِه تصعقه المفاجأةُ ، يبادرُه بصوتٍ مفزوعٍ :

• أينَ كنت ؟! ظننتك غرقت .

يرفعُ الصبي رأسَه لعصام ، فإذا بوجهه منتفخٌ ، عيناه جاحظتان يقطرُ جسدَه ماءً . إنَّها جثةُ غريقٍ تتحركُ أمامه ؛ فيطيحَ على الرجلِ ، ينتبهُ إليه وكأنَّه خارجٌ للتو من غيبوبةٍ ، يتشبثُ عصام بالرجل مفزوعاً ، ويشير إلى الصبي والذي اختفى في الهواءِ مثل دخان ، بينما الرجل يحملقُ في عصام ، وكأنَّه قد فوجِئ بوجوده ، يلملم عصام شتات نفسه ، يتملكه الشكُ والريبة :

• هل ما رأيته حقيقة أم وهماً ؟!!!

وبصوتٍ متقطعٍ فزعٍ يقول للرجل :

• الصبي .. الصبي ؟!! ما الأمر؟!

بعينين تنديان وبصوت مبلل :

• في العامِ الماضي غرق طفلي هنا ؛ ابتلعه البحرُ في ثوانٍ ولم يلفظْ جسمانَه .

• ألهمك الله الصبر .. هيا انصرفنا من هنا .

لملمُ عصام أغراضه على عجلٍ ، عقله لا يستوعبُ ما رأى ، أمعقول كل ذلك نسيج خيال ؟ يعتصرُه الحزنُ ، يودُّ إن يخففَ عن الرجل ، فيسيرُ معه بجوارِ سورِ اللسانِ في ظلامِ الليلِ :

• ها هي سيارتي هناك ؛ سأوصلك حيثُ تشاءُ

غيرُ واعٍ لحديثه يسيرُ الرجل بتروٍ ، وكأنَّ شيئاً ما يحثُّه على العودةِ إلى اللسانِ ، يتأبطُ عصام ذراعَه ، يصيبه بللُ معطفِ الرجلِ الذي يقطر ماء ، جراء مياه تتناثر من الأمواجِ المتلاطمةِ ، ولكن ما كلُ هذا الماءِ الذي يتساقط من معطفِه وكأنَّه خارجٌ من البحرِ لتوِه :

• تفضلْ اركبْ

يركب الرجل السيارة وبينما انشغل عصام بتشغيلها وهمَّ بالتحركِ ، تتعطل السيارة يلتف للرجل فإذا بالكرسي جواره خاليا وعليه آثار ماء .

13- **( الماريونيت)**

في ليلةٍ مظلمةٍ وبينما أسيرُ وحدي مُنهكاً ، أتوقفُ فجأة عندَ حديقةِ مقابرِ الكومنولثِ في منطقةِ " الحضرة " والتي تضمُّ رُفاتَ جنودِ الحربِ العالميةِ الثانيةِ من شتى البلدانِ والدياناتِ والقومياتِ ، فإذا بي ألمحُ كرسياً حجرياً يجلسُ على طرفِه رجلٌ في معطفِه ، يعتمرُ قبعةً منكسَ الرأسِ ، يتدلى من كفِه دُميةٌ خشبيةٌ تتحركُ ، أعجبتني مهارتُه ؛ اقتربْت منه وبادرْته

• مساءُ الخيرِ

يرفعُ رأسَه بترو ، ينظرُ إليَّ نظرةً عميقةً بعينيه الضيقتين اللامعتين رُغمَ الظلامِ الذي يحيطُ به ليجيبَ بهدوءٍ

• مساءُ النورِ

• جميلةٌ جداً تلك الدُميةُ المتحركةُ ، أريدُ أن أتذكرُ اسمَها

• دُميةُ " الماريونيت "

• نعمْ .. " الماريونيت " كنْت أشاهدُها في الموالدِ الشعبيةِ ، يحركُها شخصٌ ما من خلفِ ستارٍ أسود ، يحكي قصةً يرتجلُها تتضمنُ الحكمةَ ، وأحياناً تهدفُ للضحكِ فقطْ ، ولكنَّها حِكَمٌ وضحكاتٌ تَعلقُ بأذهانِنا لا ننساها حتى الآنَ

• هل ترغبُ أن أعيدَك لأيامِ الطفولةِ ؛ أرتجلُ لك قصةً فلربَّما وجدْت فيها الحكمةَ أو الضحكةَ ، لكنَّ الأكيدُ أنَّ " الماريونيت " سيوقدُ جذوةَ حنينِك لأيامِ الطفولةِ

• وهل يرفضُ عاقلٌ مثلَ هذا العرضِ الكريمِ من فنانِ "ماريونيت " ماهرٍ مثلك

• أشكرُك

نهض مِن جِلسَتِه وتراجع لسورِ المقابرِ حيثُ الظلامِ ليخفيَه ، يمدُّ يدَه فلا تظهرُ إلَّا كفُه فقطْ ، يتدلى منها دُميةٌ " الماريونيت " متخذاً من الكرسي الحجري مسرحاً لتقديمِ العرضِ وأنا في مواجهتِه ، تتعلقُ عيناي بالدُميةِ ، يمتدُّ الأفقُ المظلمُ لمقابرِ " الكومنولث " ينسابُ صوتُه الهامسُ لأسماعِي ، تُصيبُني قشعريرةٌ تَسري في جسدِي ، تجعلُني مسلوبَ الإرادةِ متجمداً مكاني ، لكن أعي كلَ كلمةٍ تصلُ لمسامعِي ، تزدادُ القشعريرةُ جراءَ صوتِه الهامسِ وهو يقولُ :

• هذه ليست حركاتي ولا تصرفاتى ، أنا مجردُ دُميةٍ خشبيةٍ مربوطةٍ ، لا أستطيعُ عملَ حركةٍ واحدةٍ ، إلَّا إذا حركني ذلك الذي يستترُ في الظلامِ ، حتى أنت لا تستطيعُ

أن تراه إنما تراني أنا ؛ تصدرُ الأحكامُ عليَّ متناسياً أنَّني مجردُ دُميةٍ خشبيةٍ ،مسئولٌ عنْ تصرفاتِها من يحركُها من وراء الستارِ يختبئ في الظلامِ .

تفترشُ الدُميةُ أرضيةَ الكرسي ، تنكسُ رأسَها ، ثُمَ تقفُ بتأنٍ تشيرُ إليَّ وتقولُ :

• انظرْ حولَك .. حتى الناسِ دُمى تتحركُ على مسرحِ الحياةِ ، فقدْ صدق من قال " ما الدنيا إلَّا مسرحٌ كبيرٌ " مسرحُ " ماريونيت " الناسُ فيه دُمى لا تدري هل يتحركون بإرادتِهم أم تحركُهم الظروفُ والعلاقاتُ الإنسانيةُ ، الجميعُ يحاولُ أن يُرضي كلَ من يراه بقولٍ حكيمٍ أو تصرفٍ مضحكٍ ، ترتسمُ الابتسامةُ على وجهِ الجميعِ ، لكلِ شخصٍ دورٌ يؤديه على المسرحِ ، لكنَّه لا يعرفُ من يحركُه في جوفِ الظلامِ من وراء الستارِ

فجأةً تؤدي الدُميةُ التحيةَ وقدْ توقفت عن الكلامِ ، يتملكُني الإعجابُ الشديدُ لقولِه

• رائعٌ جداً ، كلُها حكمةٌ

تنتفضُ الدُميةُ ، تشيرُ إليَّ تقولُ :

• الحكايةُ عندما تسمعُها فقطْ تختلفُ تماماً عنْ رؤيتِها ؛ تكونُ أكثرَ ثَباتاً في ذهنِك .. فنانُ " الماريونيت " يعرفُ جيداً كيف تحبُ أن ترى الحكايةَ ، فالخيوطُ كلُها في يديه

• ماذا حلَّ بك يا رجلُ ؟ لماذا كلُ هذا الحزنِ ؟

• كانت لي حياةٌ وأسرةٌ حتى حشدونا قسراً من كل البلدانِ ، وعلقونا في خيوطٍ ، أطرافُها بأصابعِهم يحركوننا في مسرحٍ لا ناقةَ لنا فيه ولا جملَ ، ومن ينقطعْ خيطُه يُدفَنْ هنا ، يصبحُ مجردَ شاهدٍ حجري يحملُ اسمَه وعلامةً تدلُّ على ديانتِه - يهودي ومسيحي ومسلم - جاءوا بنا من كلِ البلادِ ؛ يحركوننا لنُرضي مطامعَهم السُلطَوية .

يتملكُني الاضطرابُ وبصوتٍ مرتبكٍ أدققُ النظرَ في الظلامِ ، أرهفُ السمعَ أقولُ للرجلِ :

• ماذا تعني بكلماتك تلك ؟

فإذا بدُميةِ " الماريونيت " تتحركُ وحدَها ، لا أرى كفَّ الرجلِ ، لا أثرَ له تجحظُ عيناي أطلقُها في الظلامِ أبحثُ عنْه ، فإذا بالرجلِ يتوسطُ المقابرِ معلقاً في الهواءِ ودُمية " الماريونيت " ما زالت تتحركُ وحدَها .

## 14-( **السلسلة** )

حلَّ المساءُ في حديقةِ " السلسلة " على الكورنيشِ يزينُها تمثالُ "الأشرعةِ البيضاءِ " وبينما أنا غارقٌ في تأملِ تلك التحفةِ الفنيةِ العريقةِ ، لمحتها وقدْ جلست على الكرسي الخشبي ، وكأنَّها تنتظرُ حبيبَها ، فتاةٌ صغيرةٌ لم تتجاوزْ سنواتُها السادسةَ عشرةَ ، حباها اللهُ إطلالةً رقيقةً ، وفجأةً طرأت عليها بعضُ التغيراتِ ؛ بدا وجهُها مرهقاً ، وظهر في عينيها حزن وأسى . تتدلى من رقبتِها سلسلةٌ ذهبيةٌ ، تعبثُ بها فتحدثُني نفسي :

- ما أمر تلك الصغيرة يا تُرَى ؟!

نظرْت إليها مجدداً فرأيتها تبكي

- هناك أمرٌ غريبٌ

يدفعني فضولي للتحدثِ معها ، اقتربت لأجلسَ إلى جوارِها ، وقد مددت يدي بمنديلٍ تناولته مني على عجلٍ تجففُ دمعَها ، بادرْتها :

- ما الذي يبكيك يا ابنتي ؟

أومأت لي برأسِها أنه لا شيءَ

- هل أستطيعُ أن أقدمَ لك خدمةً ؟

بصوتٍ متهدجٍ رقيقٍ

- لا .. شكراً
- يبدو من لهجتِك الريفيةِ أنَّك غريبةٌ .. هل هناك ما أستطيعُ أن أفعلَه لمساعدتِك ؟
- شكراً .. مجردُ زوالِ الشمسِ وتسيدِ الليلِ في السماء يحزنُني .
- إلى هذه الدرجةِ ؟!
- قدْ يبعثُ فينا غروبُ الشمسِ وسوادُ الليلِ الطويلِ ذكرياتٍ حزينةً .
- ما زلت صغيرةً على كلِ هذا الحزنِ .

فجأةً تتعلقُ عيناها بتمثالِ " السلسلة " تسبحُ في صمتِ عالمِها الداخلي ، وجدْتها فرصةً لأحدثَها في شيءٍ يلهيها عن أحزانِها :

• هل ترغبين في معرفةِ أسطورةِ ذلك التمثالِ ؟

تلتفت فجأةً إليَّ وكأنَّها تراني لأولِ مرةٍ :

• وهل للتمثالِ أسطورةٌ ؟

• إن كنت ترغبين قصصتها عليك .

• يا ريت .

• التمثالُ عبارةٌ عن أسطورةٍ يونانيةٍ تحكي أن " زيوس " عندما رأى أن زوجتَه " هيرا " قد كبرت وتغضبه كثيراً ، نظر إلى الأرضِ من عليائه ليُفتتنَ بـ " أوروبا " بنت ملكِ لبنان ، وهي تلهو وسطَ الثيرانِ ؛ فتنكر في شكلِ ثَورٍ زاهٍ ليجذبَها إليه ، ثُمَ خطفها وعبر بها البحرَ إلى جزيرةِ " كريت " وهناك عاد إلى صورتِه الأصليةِ ، وأمامَ سطوتِه استسلمت له " أوروبا " فنال منها ثُمَ أخذها إلى الأرضِ التي حملت اسمَ " أوروبا " الآنَ ، هذه هي الأسطورةُ

• مسكينةٌ الفتاةُ ، أكادُ أعرفُ مشاعرَها أمامَ سَطَوَةِ " زيوس "

وفجأةً تزرفُ عينا الفتاةِ دمعًا ؛ أندهشُ لبكائها ، تبادرُني :

• أعرفُ فتاةً ريفيةً خرجت من التعليمِ لشدةِ الفاقةِ ، كان لها أخواتٌ وأبٌ أقعدتُه الحاجةُ حتى جاءها من يُبهرُ أهلَها ببعضِ المالِ ليتزوجَها ، وهي بالكادِ قد شبت عنْ الطوقِ ، ما زالت صغيرةً لا تعرفُ معنى الزواجِ ، وكان يكبرُ أباها سِناً ، لكن أمامَ سَطوةِ المالِ وانكسارِ العوزِ ارتضت أسرتُها بمقايضتِها ببعضِ المالِ ، واستسلمت لتلك السطوةِ مُضحيةً بنفسِها على مذبحِ الحياةِ ؛ لتنقذَ أهلَها ، وبينَ ليلةٍ وضُحاها ألبسها الشَبْكَةَ سلسلةً ذهبيةً تطوقُ عُنُقَها ، وأخذها في سيارتِه ، وانطلق ، ليضعَها في قفصِه الذهبي ، يأتيها كلَ فترةٍ لينالَ حلالَه ، هو فقطْ من يملكُ مفتاحَ القفصِ الذهبي ، وحينَ واتتها الفرصةُ لتطيرَ طارت لكنَّ السلسةَ تقيدُها ، فلا تجدُ مجالاً للطيرانِ تُثقلُها السلسلةُ ، لا تستطيعُ منها فِكَاكَاً

• مأساةٌ فعلاً .

وفجأةً تنهضُ وتسيرُ صوبَ سورِ كورنيشِ السلسلةِ ، فتختفي فجأةً ، يتملكُني الحزنُ لأمرِ الفتاةِ ، وإذا بي أجدُ سلسلتَها الذهبيةَ إلى جواري ولكنَّها مقطوعةً ، أتلقفُها وأسرعُ حيث سارت الفتاةُ ، فلا أثرَ لها نهائياً ، أدققُ النظرَ في الظلامِ ، فإذا بطيفِها

فوقَ ماءِ البحرِ معلقاً في الهواءِ ، أقفُ مشدوهاً لهولِ ما أراه ، ترميني بابتسامةٍ حزينةٍ ، تلوحُ برفقٍ ثُمَ يبتلعُها البحرٌ بأناةٍ وتروٍ ، أحاولُ أن أناديَها ينعقدُ لساني

لم يصبْني الرعبُ كونَها شبحاً قدرَ ما أفزعني شبحُ الواقعِ . توجهْت للبحرِ ورميت السلسلةَ ليبتلعَها البحرُ .

15-( **التوكتوك** )

عائدٌ من إحدى قرى الريفِ ، وقد ودعتْ زميلاً وافته المنيةُ ، أركبُ سيارةَ الأجرةِ ، أسندتْ رأسي مغمض العينين ، لا أحتاجُ حتى لأفكاري ، أحتاجُ فقطْ للغفوةِ ؛ ربما أنالُ قسطاً من عناءِ يومٍ طويلٍ : سفرٍ وجنازةٍ وعزاءٍ أضفْ إلى ذلك تلك الأجواءَ الشتويةَ الباردةَ ، تنهمرُ الأمطارُ ، فأتظاهرُ بعدم الاكتراثِ ، حيث لا مفرَ من مواجهةِ المتاعبِ ، حتى تتحققَ غايتي ، وأصلَ بيتي ؛ لأنعمَ بالراحةِ والدفءِ ، فما إن وصلتْ بوابةَ الإسكندريةِ على الطريقِ الزراعيةِ ، حتى هممتْ بالاستعدادِ للنزولِ من سيارةِ الأجرةِ عند مدخلِ مطارِ النُزْهةِ بدلاً من النزولِ في الموقفِ ؛ كي أتمكنَ من إيجادِ وسيلةٍ تقلني للبيتِ في أقل وقتٍ ممكن ، الوقتُ متأخرٌ لا أثرَ لبشرٍ ، المكانُ موحشٌ ، يخلو من حركةِ الحياةِ ، إلا من زخاتِ المطرِ تغرقُ الطريقَ ، البرقُ يضئ السماءَ ، وصوتُ الرعدِ يخترقُ سكونَ تلك الليلةَ القاحلةَ ، ففي مثل تلك الأجواءِ لا يغادرُ منزلَه إلا المضطرُ ، أستسلمُ للأمرِ الواقعِ ، أسيرُ تحت وطأةِ الأمطارِ في اتجاهِ طريقِ ترعةِ المحموديةِ ؛ فلربما وجدتْ وسيلةَ الركوبِ التي تنقذني مما أعانيه ، تدفعني الرياحُ الشديدةُ ، حتى وجدت " توكتوك " يقفُ بمحاذاةِ ترعةِ المحموديةِ ، قابعٌ في زاويةٍ مظلمةٍ ، فأقتربُ منه ، ففي مثل تلك الأجواءِ عليَّ أن أقبلَ بما هو متاحٌ ، فإذا بصبي داخله لا يتعدى عمرُه الرابعةَ عشرةَ ، نحيلُ الجسمِ ، له عينان تبرقان رُغم شدةِ الظلامِ ، بهما نظرةٌ مذعورةٌ ، وكأن شيئاً ما يخيفُه ، ما إن تكلمتْ إليه حتى أعارَني انتباهَه ، يمسكُ بمقودِ التوكتوك ، وكأن يديه مقيدتان إليه ، يصيبني الارتيابُ لكن ما باليدِ حيلةً

- ممكن توصلني الحضرة شارع الجواهر ؟

يومئُ برأسِه فقط ، ومجرد أن ركبت حتى انطلقَ بالتوكتوك والفضولُ يقتلُني ، ما الذي يجبرُ صبياً في مثل عمرِه أن يعملَ حتى ذلك الوقتِ المتأخرِ ، و في تلك الأجواءِ ، أليس من الأجدرِ به أن يكون تلميذاً في مدرسةٍ ، ينعمُ في مثلِ ذلك الوقتِ بدفءِ الأسرةِ ؟!! أسألُه

- ما الذي يجعلك تعملُ حتى هذا الوقتِ المتأخرِ ، والليلةُ مطيرةٌ ، وخلت الشوارعُ من الناسِ ؟!!

لا يجيبُ ، ويكتفي بأن يلقيني بنظرةٍ ، اخترقت أحشائي ، ففي نظرتِه المذعورة ضيٌ كعيني ذئبٍ ، يرمقُ فريستَه في الظلامِ ، فأحاولُ السيطرةَ على مشاعرِ الاضطرابِ التي تعتريني فأبادرُه :

- أعانك اللهُ يا ولدي .. أليس من الأفضلِ أن تسيرَ بنا بمحاذاةِ سورِ النزهةِ المتاخمِ للمحمودية ؛ كي نختصرَ الطريقَ والوقتَ ، فيلقيني بنفس النظرةِ في المرآةِ ، فتتملكني القشعريرةُ لذلك الذعرِ الواضحِ في عينيه الزائغتين ، تلهيتْ عن متابعته بالنظرِ للطريقِ الذي يتوشحُ السوادَ لشدة الظلامِ ، تلفحُني رياحُ الشتاءِ الباردةِ ، تصيبُني بعضٌ من مياهِ الأمطارِ المنهمرةِ فأرفعُ صوتي ؛ فلربما أفوزُ منه بأية كلمة ينطقها

- الطريقُ فعلاً موحشةٌ ، يُقتَلُ فيها القتيلَ لا يُغاثُ ولا يشعرُ به أحدٌ

يستمرُ في النظرِ إليَّ بنفسِ تلك النظرةِ ، وكأن أحداً ما ، لا أراه ، يهددُه ، فلا أظفرُ منه بأية استجابة لحديثي ، وكأني أحدثُ نفسي ، فأحاولُ اختراقَ ذلك الصمتِ بسؤالي إياه ؛ ربما أجابني

- ألا تتعرض لمضايقاتِ البعضِ ممن يركبون معك ؟

فإذا بالتوكتوك فجأةً يتقطعُ في مسيرِه بمجرد أن اقتربنا من بوابةِ حديقةِ الحيوانِ الحديديةِ المواجهة لترعة المحمودية ليتوقف فجأة ، ويعمُ الصمتُ ، ويغيبُ الضوءُ ، يسيطرُ السكونُ المطبقُ على المكانِ وكأننا في جوفِ قبرٍ

- هل تعطل محركُ التوكتوك ؟ لابد وأن الأمطارَ هي السببُ الرئيسُ للعطلِ

لا يجيبُ ، وينزل من التوكتوك متوجهاً إلى بوابةِ حديقةِ الحيوانِ الحديديةِ ، يحوطُه الظلامُ ، يسيطرُ عليَّ القلقُ والاضطرابُ ، ربما سيعود ومعه لصوصٌ لسرقتي ، وربما تعرضتْ للإيذاءِ ، فيقطعُ اضطرابي ظهورُه المفاجئ ناظراً إليَّ كمن يطلبُ الاستغاثةَ ، يمدُ يديه نحوي محركاً أصابعَه ، يحاولُ أن يمسكَ بالهواءِ ، تمنعُه يدٌ خفيةٌ تمسكُ به من الخلفِ ، وكأنه مقيدٌ بقيدٍ إلى قضبانِ البوابةِ الحديديةِ لا يملكُ فكاكاً ، فينتابني الذعرُ ، أتحاملُ على نفسي ، وأتوجهُ إليه بحذرٍ ، أتحسسُ بقدمي الأرضَ ، وما إن اقتربتْ منه حتى ارتعدت وجفَ حلقي وغاب صوتي ، لا أستطيعُ الحركةَ لبشاعةِ ما أرى ، الدماءُ تسيلُ من رقبةِ الصبي بغزارةٍ ، جراءَ قطعٍ فيها ، و استحالت شفتاه للزرقةِ ، وقد جحظت عيناه كالمشنوقِ ، يمدُ يديه نحوي ، ترتعدُ أصابعه تتحركُ في الهواءِ تحاولُ أن تمسكَ بي ، فأطلقُ قدمي للريحِ رعباً ، حتى انكفأتَ على وجهي أمامَ بنايةِ محطةِ الرفعِ ، التي يفترشُ ضوءُها الخافتُ أرضيةَ

الطريقِ الغارقةِ أثرَ المطرِ ، يرتعدُ جسدي ، فإذا بيدٍ تمتدُ ؛ لتنهضَ بي فأدفعُها مذعوراً

- اهدأْ .. أنا الحارسُ الليلي لمحطةِ الرفعِ ؟

أهناك من يطاردُك ؟

- في الظلامِ .. في الظلامِ .. صبيٌ .. ذبحوه .. ذبحوه

نظرَ إليَّ في أسى متحسراً :

- نعم صبيُ توكتوك ، منذ عامٍ استدرجه لصوصٌ ؛ سرقوه و بدمٍ باردٍ ذبحوه .. حمدٌ للهِ على سلامتِك يا أستاذ . قدر ولطف .

**16- ( فيلا جورا )**

في ليلةٍ من تلك الليالي التي أكونُ فيها عالِقاً بذكرياتي ، أسيرُ وحدي في " محطة الرمل " تلتقطُ عيناي صورٍ لتلك البناياتِ الكلاسيكيةِ العريقةِ . أجدَ نفسي في " ديليس " ، تطوفُ عيناي في ذلك المحلِ العريقِ الذي لم تنلْ منه يدُ العبثِ والإهمالِ ؛ فأشمُ عبقَ الزمنِ الجميلِ ، يأتيني النادلُ في زيه المهندمِ الأنيقِ :

- قهوةٌ مضبوطةٌ من فضلِك .

تقع عيناي على فاتنةٍ شقراءٍ أحاط برقبتِها فروٌ كثٌ ، يلفُ جسدَها الممشوقَ مِعطفٌ أنيقٌ قصيرٍ يكشفُ عن ساقين كأنَّهما المرمرُ ، تعتمرُ قبعةً أنيقةً ، تنفثُ دخانَ سيجارتِها ، تمسكُ بأصابعِها الرقيقةِ فنجانَ القهوةِ ، في عينيها الزرقاوين مسحةُ حزنٍ لا تخفيها ، تهربُ منهما دمعةٌ لتجريَ على خدِها الوردي ، تمسحُها بإحدى راحتيها ، تطفئ سيجارتَها ، ترتشفُ القهوةَ ، تختلسُ عيناي النظرَ إليها ؛ تنتبهُ ، ترمقُني بنظرةٍ يغلفُها الودُ ؛ فأومئ لها برأسي تحيةً ، ترتسمُ على شفتي ابتسامةٌ مصطنعةٌ ، فلربَّما اقتحمت عليها خصوصيتَها بنظراتي المتفحصةِ ، فإذا بها تقفُ فجأةً لتنصرفَ ، وقد أمسكت بأوراقٍ على ما تبدو " نوتة موسيقية " ، تومئ لي برأسِها ، تعلو شفتيها ذات الابتسامة ، تنصرفُ وقد ملكت عليَّ بالي ؛ تنشغلُ عيناي بمشيتِها الرقيقةِ حتى غادرت المكانَ ، تطلُّ من رأسي أسئلةٌ تبحثُ عن إجاباتٍ : يا ترى من تلك الفاتنةِ ؟

أعودُ لقهوتي ، تطوفُ عيناي في المكانِ تتأملُ ما رسمته ريشةُ الزمانِ ، أتخيلُ من جلسوا في ذلك المحلِ الراقي فإذا بالفاتنةِ على الرصيفِ ، تتلفتُ حولَها ، تبحثُ عن شيءٍ ما ، أجدُها فرصةً قد واتتني كي أتحدثَ إليها ، أغادرُ " ديليس " أتعمدُ الوقوفَ على مقربةٍ منها ، تلتفتُ إليَّ يبدو على قسماتِ وجهِها الارتياحُ أن التقتني ؛ فبادرتني قائلة :

- من فضلِك كيف أصلُ إلى حديقةِ " نوبار" شارع السلطانِ حسين ؟

بسرعةٍ خاطفةٍ ابتسمت لأقتنصَ فرصةَ مرافقتِها :

- أستطيعُ أن أرافقَك إلى هناك ؛ فهذا طريقي ، ويمكنُنا أن نصلُها سيراً على الأقدامِ ؛ فهي قريبةٌ من هنا .

تزدادُ ابتسامتُها ، تومئ برأسِها موافقةً ، وبدأنا السيرَ ؛ تتملكُني سعادةٌ غامرةٌ كوني أسيرُ في رفقةِ تلك الفاتنةِ ، أبادرُها برقةٍ :

- تتحدثين العربيةَ بطلاقةٍ مع أنك على ما يبدو أجنبيةٌ ؟

تخطو برشاقةٍ في صمتٍ ، تحطُّ عيناها على كلِ بنايةٍ ؛ تتأملُها وقد علت وجهَها علاماتُ الحسرةِ و بصوتٍ رقيقٍ تقولُ :

- لم أظنُّ يوماً أن أفارقَك

- من تقصدين ؟

- الإسكندريةُ . ما زال بريقُها يلمعُ في عيني ؛ يوقدُ جذوةَ ذكرياتي لربيعِ أيامِنا فيها .

- ها قد وصلنا . تلك هي حديقةُ " نوبار " .

الحديقةُ مظلمةٌ إلَّا من ضوءٍ هزيلٍ ؛ تسرب إليها من أعمدةِ الإنارةِ ، تحجبُه أغصانُ أشجارِها المهوشةِ ، تغرقُ أرضيتَها أوراقَ أشجارٍ جافةٍ ، وبنظراتٍ تعلوها الدهشةُ تنظرُ للحديقةِ قائلةً :

- يبدو أنَّ يدَ الزمنِ قد عبثت بالحديقةِ مخلفةً بصماتِ الإهمالِ عليها ، كنت أودُّ الجلوسَ فيها قليلاً ، لكنها موحشةٌ فهل يمكنُك مرافقتي إن سمحت ؟

بأدبٍ جم ، وفي سعادةٍ لا أستطيعُ اخفاءها ، أجيبُها دونَ ترددٍ :

- من دواعي سروري .

وما أن أطلقت ناظريها في المكانِ حتى استدارت قائلةً :

- أين تمثالُ " كاتمة الأسرار " الذي حلَّ محلَ تمثالِ نوبار باشا ؟!! هذا ليس التمثالَ الأصلي .

- فعلاً قد تمَّ نقلُ النسخةِ الأصليةِ لمُتحفِ الفنانِ " محمود مختار " في القاهرةِ ، وتلك نسخةٌ مقلدةٌ ، نحاولُ بها إعادةَ الحديقةِ إلى رونقِها القديمِ

- أنتمْ لا تعرفون شيئاً عن تلك المدينةِ الساحرةِ . الإسكندريةُ رمزٌ للـ " كوزموبوليتانية " تتعانقُ فيها الأعراقُ والأجناسُ والدياناتُ المختلفةُ في تناغمٍ فريدٍ يضفي إلى جمالِها جمالاً .

- فعلاً عرفت أنَّ مدينتي فيما مضى كانت ملتقى كافةِ الجنسياتِ والثقافاتِ ، ولكن يدهشُني أنَّك تتكلمين وكأنَّك قد جئت من الماضي !

تصمتُ فجأةً وقد تعلقت عيناها بڤيلا " أبو الفضل " العريقةِ لا تحيدُ عنها ، يبدو على قسماتِ وجهِها مسحةُ حزنٍ دفينةٍ ؛ تسقطُ من عينيها دمعةٌ فجأةً ؛ تشعرُني بالارتباكِ

- هل بدر مني ما يُحزنُك ؟

- في داخلي أحزانٌ وحسراتٌ ، وهنا فقط أختبئ منهم .

- هل تعرفين ڤيلا " أبو الفضل " ؟

- تقصد ڤيلا " جورا " ، هي في عيني لا تهرمُ مهما تلاشت الذكريات ، كم اشتقت إليها !

- هل رأيتها من الداخلِ ؟

- كم تراقصت جدرانُها لعزفي على البيانو !

- أنتِ إذاً عازفةُ بيانو ، لذلك تمسكين بتلك النوتةِ .

- نعمْ .

- وهل تعرفين تاريخَ الڤيلا ؟

تسرحُ بناظريها في الفيلا :

- ڤيلا " جورا " صمَّمها المعماري اليوناني " جاربيس جريباري " على الطرازِ القوطي الحديثِ لصالحِ مالكِها الأصلي " چوزيف جورا " أحدُ أهمَّ الشَخصياتِ الإنجليزيةِ اليهوديةِ في نهايةِ القرنِ الـ 19 بالإسكندرية ، وقد آلت ملكيتُها من بعده لابنه " أدوين "

تستديرُ فجأةً وقد وضعت كفَها على رجلي لتقولَ :

- هل تعرفُ أنَّ الڤيلا تحوي مقتنياتٍ ثمينةٍ من التحفِ والأنتيَكاتِ وحديقةً تضمُّ أندرَ النباتاتِ

وفي محاولةٍ مني لإخفاءِ ارتباكي أبادرُها :

- ألم يكنْ لـ " أدوين " وريثاً ؟

- فتاةٌ . كانت عازفةَ بيانو بارعةً ، تصدحُ الإذاعةُ بعزفِها ليلَ نهاراً .

- وأين هي ؟

- هاجرت من مصرَ ، وقد ترددت على الإسكندريةِ مراتٍ عديدةً أواخرِ عمرِها ، فالإسكندريةُ تمثلُ لها ربيعَ ذكرياتِها .

- قد ماتت إذن ؟

استدارت فجأةً ترمقُني بشدةٍ ؛ تصيبُني قشعريرةٌ وبصوتٍ غاضبٍ :

- وجدوها جثةً هامدةً ، وقد أطبقت بيديها على نوتةٍ موسيقيةٍ ، على ذاتِ الكرسي مكانك ، وتمَّ دفنُها هنا . تشيرُ بأصبعِها إلى " مقابر اليهود " المتاخمةِ للحديقةِ .

انتفضَ مذعوراً ، وما أن نظرت لأصبعِها حتى وجدت كفها وقد كستها التجاعيدُ تبرزُ عظامُها ، فنظرت لوجهِها مرتبكاً ، فإذا بها قد استحالت لعجوزٍ بشعرٍ أبيض مهوشٍ قد كشف عن جلدِ رأسِها ، يختفي بياضُ عينيها ليملأها سوادٌ قاتمٌ ، تزرفُ الدماءُ منهما تسيلُ على تجاعيدَ خديها ، أحاولُ الصراخَ فلا يخرجُ صوتي ؛ يتصببُ جبيني عرقاً ، يكاد قلبي يتوقفُ رعباً ، أحاولُ الفرارَ تتجمدُ ساقاي مكانهما ، تقف العجوزُ ، فإذا بضبابٍ قاتمٍ يحوطُها تنبعثُ صرخاتُها مدويةً ، تبتلعُها عتمةُ المقابرِ ، وإذا بالنوتةِ الموسيقيةِ مازالت ملقاةً على الكرسي إلى جواري .

17-( **العنبر** )

دقائقٌ تفصلُني عنْ إجراءِ جراحةٍ ، وهَا أنا قدْ أفقت يغلبُني الألمُ ، تتكشفُ عيناي الناعستان المكانَ لأجدَ نفسي في حجرةٍ مظلمةٍ إلَّا منْ ضوءٍ هزيلٍ يتمددُ أمامَ أرضيةِ المدخلِ ؛ فقد حلَّ الليلُ باسِطاً سكونَه المطبقَ على مستشفى التأمينِ الصحي ، يتسللُ إليَّ الوعي بتروٍ ؛ فأدركَ ما حولي ، يقابلُ سريري جسدُ أحدِهم يغطُّ في نومٍ عميقٍ مُسجَّى في سكونٍ تامٍ على سريرِه ، يغطي وجهَه ربَّما ليتفادى برودةَ الجوِ ، لم تلحقْه الإفاقةُ بعدْ ، أتمنى أن يفيقَ ليؤنسَ وحشتي في تلك الليلةِ الباردةِ ، تخترقُ أسماعَي أصواتُ أمطارٍ ممزوجةٍ بصوتِ أغصانِ الشجرِ الثائرةِ مع الرياحِ العاصفةِ ، أمنيتي الآنَ أن يظهرَ لي أحدٌ يساعدُني لأغادرَ سريري ؛ لكن من الصعبِ أن تتحققَ ؛ فالوقتُ متأخرٌ ، والأجواءُ لا تشجعُ أحداً أن يغادرَ مكانَه ، أتحاملُ على نفسِي وقد لففت جسدي بالغطاءِ الصوفي ، أسيرُ بتأنٍ فلا ينزعجُ جاري في الحجرةِ ، بخطواتٍ متباطئةٍ أخرجُ لأجدَ العنبرَ خالياً من أي حركةٍ ، تلمحُ عيناي لافتةً متهالكةً تشيرُ إلى دورةِ مياهٍ في اتجاهِ تلك الردهةِ المظلمةِ الممتدةِ ، أتوغلُ فيها يقابلُني بابٌ مغلقٌ ، أجاهدُ فأفتحَه عنوةً ؛ حاجتي لإفراغِ المثانةِ الممتلئةِ تدفعُني غيرَ عابئٍ بآلامِ الجراحةِ والظلامِ الموحشِ ، ألحظُ حجراتٍ مظلمةً قد أوصِدت أبوابُها على جانبي الردهةِ ، فإذا بي أرى نافذةً مفتوحةً في نهايةِ الردهةِ تقفُ على حافتِها خيوطُ ضوءٍ هزيلةٍ ألقتها مصابيحُ الشارعِ المجاورِ ، أتوجهُ إليها ربَّما وجدت دورةَ المياهِ فتزولَ آلامي التي تزدادُ مع برودةِ الردهةِ الشديدةِ ، وما إن وصلت إليها حتى لمحت يسارَها مدخلَ دورةَ المياهِ ، لا أكادُ أرى موضعَ قدمِي ، أتحسسُ الحائطَ بحثًا عنْ مِفتاحِ النورِ فلا

تنجحُ محاولتي ، تزدادُ آلامي فلا أعبأ بالظلامِ الدامسِ والسكونِ الرهيبِ ، أشعرُ بدوارٍ فأستندَ إلى البابِ ، وما أن انتهيت حتى شعرت بالراحةِ ، ولكنَّ الدوارَ يكادُ يسقطُني أرضاً ، أجتهدُ وأستديرُ لتقعَ عيناي على عينٍ حمراءٍ تتوهجُ وسطَ الظلامِ المعتمِ ؛ تضطربُ أنفاسي فزعًا ، إنَّها تقتربُ مني أكثرَ فأكثرَ ؛ يكادُ قلبي يتوقفُ رعباً ، حتى أكتشفُ أنَّها مجردَ سيجارةٍ مشتعلةٍ يمسكُ بها بينَ شفتيه رجلٌ طويلُ القامةِ قدْ لفَّ جسدَه بملاءةٍ بيضاءٍ ، يرمقُني بنظرةٍ متفحصةٍ ، تلمعُ عيناه ؛ مما جعلني أنسى الدوارَ وآلامَ الجراحةِ ، فلم أتمكنْ من الصمتِ فقلت بصوتٍ متهدجٍ وقد تعلقت يدي بالبابِ كي لا أسقطُ

• مَنْ ؟!!

يجيبُني في ترٍو بصوتٍ له صدى كمن يتكلمُ من جوفِ بئرٍ

• نزيلٌ بالمستشفى

• أفزعتني يا رجلُ ؛ تقفُ في الظلامِ ، ألَّا تضئ النورَ ؟!!

• لم أعثرْ على مِفتاحِ النورِ ، دفعتني الرغبةُ في التدخينِ أن آتي إلى هُنا

وإذا به يترنحُ فجأةً ؛ يمدُّ يديه يستندُ على كتفي ؛ يطلبُ أن يتوكأ على جسدي الواهنِ كي أوصلَه حجرتَه ، فلا أستطيعُ ردَّ طلبِه ، يريحُ ذراعَه على كتفي ، ألفُّ ذراعي على خَاصِرِه ، يتخذُ كلانا الآخرَ مُتكأً ، الرجلُ باردُ الجسدِ وكأنَّه خرج من ثلاجةٍ لتوِه ، تتلمسُ عيناي ملامحَ وجهِه المرهقِ ، ألحظُ أثارَ دماءٍ متجلطةٍ تغطي مُعظمَ وجهِه ؛ ينتابُني القلقُ الممزوجُ بالريبةِ لأمرِ الرجلِ ، ربَّما جاء في حادثٍ لتوِه ولم يتلق عنايةَ أحدِهم حتى الآنَ ، غريبةٌ جداً تلك البرودةُ التي تنبعثُ من جسدِه ، أتلهى عن آلامي بسؤالِه :

• ما جاء بك للمستشفي ؟

• جئت في حادثٍ ، لأجدَ نفسي ها هنا على هذه الحالةِ المتردية

• حمدٌ للهِ على سلامتِك .. أنا جئت لإجراءِ جراحةٍ عاجلةٍ

• ها هي حجرتي ، هل ساعدتني حتى أتمددَ على سريرِي ، تتملكُني ألامٌ مبرحةٌ

• أعانني اللهُ وإياك

حجرةُ الرجلِ ليس بها أثرٌ لضوءٍ ، وكأنَّنا في قبرٍ ، يجلسُ الرجلُ على حافةِ سريرِه ، أتراجعُ للخلفِ ممسكاً بعارضةِ السريرِ المعدنيةِ الباردةِ ، تلمحُ عيناي جسداً ساكناً على السريرِ المجاورِ ، فما إن استدرت للرجلِ بوجهِي حتى وجدته ممدداً على سريرِه ، عجبت لسرعةِ نومِه ، انسحبت ببطءٍ شديدٍ ؛ يعاودُني الألمُ والشعورُ بالدوارِ

، أقفُ هنيهةً ؛ تتعودُ عيناي ظلامَ الحجرةِ لأجدَها بلا نوافذٍ ، تلفتُني ورقةٌ مدلاةٌ بخيطٍ مربوطٍ في أُصبعِ قدمِ الرجلِ وقد قُيدَت قدماه لبعضِهما بالشاشِ الأبيضِ ، ألقي بنظرةٍ على وجهِ الرجلِ فأجدَه فاغراً فاه ، أنظرُ إلى جارِه لأجدَه على ذاتِ الحالِ ، قدْ لطخت غطاءه الدماءُ ؛ تتلاحقُ أنفاسي فزعاً ، أحاولُ الخروجَ من الحجرةِ ، فلا أقوى على الإسراعِ ؛ ترتعشُ يداي ، يكادُ قلبي يتوقفُ ، أسرعُ قدرَ طاقتي حتي خرجت من الردهةِ إلي العنبرِ حيثُ الضوءِ الهزيلِ ، أندفعُ نحوَ حجرتي بعدَ أن أدركت أنَّني في مشرحةِ المستشفى ، وجدت رفيقَ الحجرةِ قدْ أفاق يجلسُ على سريرِه في الظلامِ يبادرُني :

• ما بك ؟!

يعجزُ لساني عن الكلامِ ، أستديرُ إليه ، أحاولُ أن أحافظَ على اتزاني ، فإذا به نفسَ الرجلِ فاغراً فاه ، أصرخُ فلا يخرجُ صوتي .

أفتحُ عيني لأجدَ الطبيبَ والممرضةَ بجواري ، تنشرُ الشمسُ ضوءها يملأ أرجاءَ الحجرةِ

• حمدٌ للهِ على سلامتِك .. العمليةُ نجحت .

18- ( **حدف البحر** )

ها أنا ذا أسيرُ على رمالِ الشاطئ بأناةٍ ، يسبحُ خيالي في الأفقِ الممتدِ ، وإذا بي أشعرُ بأنفاسٍ ، وكأن أحداً ما يسيرُ لجواري ، أتلفتُ مراراً فلا أجدُ شيئاً ، يتملكُني الاضطرابُ ، أسرعُ الخطو ، فإذا بزجاجة مغلقة يحدفُها البحرُ ، لتقعَ عليها عيناي ، يبدو أنَّ بداخلِها لفافةً ، أسرعتُ ألتقطُها قبلَ أن تسحبَها مياهُ البحرِ للداخلِ ، وما إنْ أمسكت بها حتى سرت في جسدي قشعريرةٌ ، أحدثُ نفسي :

• قطعاً سيكون بداخلِها رسالةٌ ما ، ربما كانت مهمةً أو تحملُ سراً ، يغلبُني الفضولُ أحاولُ فتحَها فأجدُ صعوبةً بالغةً ، تتملكُني الرغبةُ أن أعرفَ ما تحويه اللفافةُ .

• تبدو مخطوطة ، وربما تكون تاريخيةً ، فلربما تحوي ما يستحقُ

كلما اقتربت من فتحها ، تتسارعُ ضرباتُ قلبِي ، تخترقُ أنفي أنفاسٌ ممزوجةٌ برائحةِ التبغِ ، أتلفتُ فجأةً ، فتسقطَ الزجاجةُ على الرمالِ ، ولا أجدُ أحداً في المكانِ ، فقط الصمتَ المطبقَ والظلامَ ، ألتقطُ الزجاجةَ ، لأجدها مفتوحةً ، واللفافةُ قد برزت من عنقِ الزجاجةِ وحدَها

• كيف انفتحت الزجاجة ؟!!

الظلامُ المعتمُ ، يجعلُ قراءةَ ما بها صعبَ المنالِ ، أسيرُ بحثاً عن ضوءٍ يمكّنُني من قراءةِ ما بها ، ما زالت الأنفاسُ تجاورُني ، أسرعُ ، وقد ارتعدت فرائصي ، وسرت القشعريرةُ في بدني ، أهرولُ صوبَ الضوءِ خارجَ الشاطئ ، وما إن وصلت لرصيفِ الشاطئ ، حتى هممت بفضِها ، لأجدها قد خُطَّت بقلمِ ريشةٍ وحبرٍ أسودٍ ، يبدو أن سنين غيرَ قليلةٍ قد مرَّت عليها ، مدونٌ فيها ..

• "هذه الحياةُ لن تتوقف من أجلِ أحزانِك ، إما أن تتعافى وتواجهها ؛ كي تكملها رغم همومِك وانكساراتِك أو تستسلمَ ، فتكونَ طريحاً للأبد ، إن التعود- على الألمِ لا ينفي إحساسَنا به ، هو فقط يخرسُ الأنينَ بداخلِنا " .. جابر القباني "

• إنها مجردُ خواطرٍ لبحارٍ ، يقاسي آلاماً في حياتِه ، وربما عاشق فقد حبيبتَه وسطَ عواصفِ الحياةِ ، التي لا ترحمُ ، لكنها من المؤكدِ قد كُتِبَت من زمنٍ بعيدٍ ..

وفجأةً أشعرُ برائحةِ التبغِ ، أستديرُ لأجدَ رجلاً يرمقُني بعينين ، يغلفُهما الحزنُ ، ترتسمُ على شفتيه ابتسامةٌ باهتةٌ

• هل وجدت هذه الرسالةَ في تلك الزجاجةِ ؟!

• نعمْ . وما أدراك بذلك ؟!!

• الزجاجةُ وشكلُ الرسالةِ

• فعلاً

• وماذا فيها ؟!

• مجردُ خواطرٍ كتبها أحدُ ما في زمنٍ ما

• أليس من الواردِ أن تكونَ تلك الكلماتُ ، هي أخرُ ما كتب صاحبُها ، فكان يحملُ من الألمِ ما يعتصرُ روحَه ، أو كانت له قصةٌ تحملُ مأساةَ روحين عذبتهما تقلباتُ الدهرِ؟

• ربما

وبصوتٍ هامسٍ حزينٍ وقد اغرورقت عيناه بالدموعِ يقولُ :

• أعرفُ قصةَ شابٍ أحب فتاةً ، وأحبته ، لكن مطامعَ أهليهما على السيادةِ والسيطرةِ ، حالت دون التقاءِ روحيهما

تزرفُ من عينيه دمعةً فجأة ، يحاولُ إخفاءَها :

• غالباً ما تقفُ رغباتُ الأهلِ حائلاً أمام العواطفِ النبيلةِ ، فتمنعُ حلالاً أقره اللهُ

• نحن نحتاجُ إلى عالمٍ آخرٍ بعيداً عن صراعاتِ الذين لم يفهموا بعد معنى تعلقِ الروحِ بالروحِ

• ماذا تقصد بــ" نحن " ؟ !!

• أقصدُ المحبين .. هم دائماً حالمون يؤمنون بأن الحبَ ليس كلامًا بل شعوراً ، لا يستحقُه إلا شخصٌ واحدٌ في حياتِهم ، مهما باعدت بينهما الأقدارُ

• أفهم من كلامِك أنهما لم يحققا أحلامَهما ؟

• الأحلامُ سفنٌ تمخرُ الأمواجَ ، لكن المطامعَ البشريةَ قد سرقت البحرَ منها .

• شوقتني لقصتهما ؟

• بعد أن ترك السيدُ " محمد كُريّم " منصبَ قباني السفنِ في ثغرِ الإسكندرية بأمر" مراد بك "، وتعيينه حاكماً على الثغرِ ، دبّ الصراعُ بين عائلتيهما على من يخلف السيد " كُريّم "على منصبِ القباني ، وكان من نصيبِ عائلتِه لتزدادَ فجوةُ الخلافِ بين العائلتين ؛ مما جعل ارتباطَهما مستحيلاً ، ولم يمرْ العامُ حتى جاء بونابرتا بجيش الفرنسيس غازياً ، وساد الهرجُ والاضطرابُ في الإسكندرية ، فهاجرت العائلاتُ منها ومنهم عائلتها ، هاجرت إلى غزة في برِ الشامِ ، فألقى المحبُ بنفسه في أتونِ المقاومة مع رجالِ السيدِ "محمد كُريم "

• هي قصةٌ قديمةٌ إذن ؟!

• ولكنها تحدثُ كثيراً ، وكل يوم

• صدقت وماذا بعد ؟

• ما إن بسط الفرنسيسُ سيطرتَهم ، وألقوا القبضَ على السيد " محمد كًريم " واصطحبه بونابرتا معه للقاهرةِ ؛ لتنفيذِ حكمِ الإعدامِ فيه ، وزادت مطارداتُ الفرنسيسِ لرجالِ المقاومةِ ، حتى ضاقت به الأرضُ ؛ فركب السفنَ يطوفُ بين موانئ العالمِ يأملُ أن يذهبَ لبرِ الشامِ يوماً ؛ فيلقاها ، وذات مرةٍ وصل إلى غزة وبحث عنها ، وعرف أنها ماتت مع من ماتوا في وباءِ الطاعون الأسود ، ليعود للبحرِ يبثه أحزانَه على حُلمٍ مات ، يتنقل بين موانئ العالمِ ؛ ينفقُ عمرَه بغير حسابٍ ، فحبُها جذوةٌ متقدةٌ في قلبِه لا تنطفئ أبداً

• وهل عاد للإسكندرية ؟

• بعد سنواتٍ عديدةٍ ، وكانت روحُه ما زالت تنزفُ ؛ لم يحب سواها .

• قصةٌ حزينةٌ ؟

• كانت النوةُ شديدةٌ ، والرياحُ عاتيةُ ، والأمواجُ ثائرةٌ ، وكان على السفينةِ أن تنتظرَ خارجَ " البوغاز " فشعر باقترابِ القدرِ المحتومِ ، فكتب رسالتَه الأخيرة ؛ يودعُها قلبَ البحرِ ، تصطدمُ السفينةُ بالصخورِ ؛ لتتحطمَ الأشرعةُ وتهوى عليه ليلقى حتفَه ، ويبتلعُه البحرُ

• يا لها من مأساةٍ ! وماذا كتب في رسالتِه الأخيرةِ ؟!

• " هذه الحياةُ لن تتوقفَ من أجلِ أحزانِك ، إما أن تتعافى وتواجهها ؛ كي تكملَها رُغم همومِك وانكساراتِك ، أو تستسلمَ فتكونَ طريحاً للأبد إن التعودَ على الألمِ لا ينفي إحساسَنا به هو فقط يخرسُ الأنينَ بداخلِنا . " جابر القباني

• لحظة.. انتظر.. أليست تلك هي نفس الكلماتِ التي خُطَّت في الرسالةِ التي معي ؟!!! بل ونفس التوقيعِ " جابر القباني

ينظرُ إليّ بعينين يغلفُهما الحزنُ ترتسمُ على شفتيه ابتسامةٌ باهتةٌ ، ويختفي ، حتى الزجاجةِ والرسالةِ لا أثرَ لهما .

19- ( **القطار** )

تشقُ صرختي سكونَ الليلِ ؛ أنتفضُ في فراشي ، يضطربُ قلبي ، تتلاحقُ أنفاسي ، يتصببُ جبيني عرقاً ، بجواري زوجتي ؛ أيقظتها صرختي المدويةُ

• أريدُ كوبَ ماءٍ من فضلِك ؛ حلقي جافٌ

• يا ربي كابوسٌ مرعبٌ

• خيراً

• رأيتني وقدْ تأخرت على قطارِ الليلِ أهرولُ على رصيفِ محطةِ مصرِ ؛ لألحقَ به ، فما إن قفزت إلى بابِ العربةِ الأخيرةِ حتى أسرع القطارُ ، وإذا بالعربةِ شديدةِ العتمةِ خاليةٍ من الركابِ إلَّا من راكبٍ منهمكٍ في متابعةِ هاتفِه ، انزويت إلى جوارِ النافذةِ في كرسي بعيدٍ ، وقدْ تعلقت عيناي بهاتفِي ؛ أقتلَ به ساعاتِ السفرِ ، العربةُ شديدةُ الظلامِ ، القطارُ منطلقٌ يحدثُ ضجيجاً قد اعتدناه ، يشقُ الظلامَ الدامسَ وسطَ خطوطِ السككِ الحديديةِ ، تشتدُ العتمةُ داخلَ العربةِ إلَّا من ضوءِ شاشاتِ هاتفينا

• وماذا في ذلك يا زوجي العزيزَ ؟!

• سأخبرُك فقطْ اسمعيني

• كلي آذانٌ صاغيةٌ .. استمرْ

• فجأةً بدأت حركةُ القطارِ تتباطأ ، انتبهت لأنظرَ من النافذةِ أينَ وصل بنا القطارُ ، فلا أرى سوى فضاءٍ مظلمٍ يعمُّه السكونُ المطبقُ ، بدأ القطارُ يتوقفُ ، فإذا بالعربةِ وقد صارت بمحاذاةِ رصيفِ محطةٍ مهجورةٍ يغطيها الرُكامُ ، لا أثرَ للحياةِ فيها ؛ ينتابُني شيءٌ من القلقِ ، أكلمُ الرجلَ في العربةِ فكان لصوتي صدى لهولِ السكونِ والفضاءِ المظلمِ حولَنا

• أكيدٌ هناك إصلاحاتٌ وسرعان ما ينطلقُ القطارُ

يرفعُ رأسَه يومئ بها موافقاً الرأي دونَ أن ينبثَ بكلمةٍ ، أرى لعينيه ضوءاً أفزعني ، ولكن ربَّما كان جراءَ انعكاسِ ضوءِ الهاتفِ على وجهِه ، أنظرُ من النافذةِ تجذبُ مسامعي جلبةٌ وأصواتٌ تملأ رصيفَ المحطةِ المهجورةِ ، فإذا بالعديدِ من الركابِ وقد تحلقوا على الرصيفِ ، ينبعثُ من وسطِهم ضوءُ نارٍ انعكس على وجوهِهم فبدت بشعةً مخيفةً وكأنَّهم أشباحٌ ، قررت الانضمامَ إليهم ريثَما يتحركُ القطارُ ، فإذا برجلٍ مسنٍ في ثيابٍ رثةٍ يمسكُ ببرادِ شاي ، وقدْ أمسك كلٌ منهم بكوبٍ يحتسيه ، يصبُّ المسنُ لمن يمدُ يدَه إليه

• أكيدٌ شربت معهم .

• إن لم تقاطعيني سأخبرُك

• أخرُ مرةٍ .. استمرْ

• الجميعُ في صمتٍ مطأطئُ الرأسِ ، يلقي بناظريه وسطَ النارِ يتابعُها أمدُّ يدي للرجلِ فيناولني كوباً ، الكوبُ زلجٌ فاترٌ ؛ يكادُ ينزلقُ من يدي التي أصابها بللٌ من الكوبِ ، أتركُه لأمسحَها بالمنديلِ ، أجدُها ملطخةً بآثارِ دماءٍ أصابتها ؛ يعتريني الذهولُ أفقدُ القدرةَ على النطقِ ينظرون إليَّ جميعاً ، تنسابُ الدماءُ على وجوهِهم ، تلمعُ عيونُهم المذعورةِ في الظلامِ ، يمدون أيديهم نحوي ببطءٍ ؛ يريدون التعلقَ بي أنتفضُ مذعوراً وأقفزُ إلى العربةِ مسرعاً ، أرتمي على شريكي في العربةِ ؛ يرفعُ رأسَه ، تفاجئني الدماءُ تنسابُ على وجهِه ؛ أزجُه مفزوعاً ، أنطلقُ للعربةِ المجاورةِ أتخبطُ في الظلامِ لا أجدُ حياً يُرزَقُ ، وجدت " الكُمسَاري " تشبثتُ به ، وبصوتٍ خالطه الفزعُ أقصُّ ما رأيت فيخبرُني :

• إنَّها لا شكَ أرواحُ ضحايا حادثِ القطارِ ؛ فقدْ تناثرت دماؤهم في أرجاءِ العربةِ وجُمِعَت أشلاؤهم على رصيفِ تلك المحطةِ المهجورةِ فاختلط ترابُها بدمائهم حتى تمَّ نقلُهم .. تعال لا تقلقْ

رافقني الكُمسَاري وأجلسني إلى جوارِ النافذةِ ، وجلس لجواري يؤنسَني حتى يتحركَ القطارُ ، وفجأةً يتحركُ القطارُ ، فإذا بالكُمسَاري وقدْ اختفى فجأةً وتنسابُ خيوطٌ من الدماءِ سائلةً على جانبي العربةِ؛ أصرخُ حتى بُحَّ صوتي لأجدَه كابوساً .

• معك حقٌ كابوسٌ مزعجٌ .. خيرٌ إن شاء اللهُ .. لا عليك

• كمْ الساعةُ ؟

• عليك أن تستعدَ ؛ موعدُ قطارِك قدْ اقترب

وما إن وصلت لرصيفِ المحطةِ حتى وجدت قطارَ الليلِ وقدْ بدأ يتحركُ ؛ انطلقت مهرولاً ؛ أقفزُ إلى العربةِ الأخيرةِ ، أجدُها مظلمةً خاليةً من الركابِ إلَّا من راكبٍ واحدٍ ينهمكُ في متابعةِ هاتفِه ، أنزوي في كرسي بعيدٍ وقد تعلقت عيناي بهاتفِي ؛ أقتلُ به ساعاتِ السفرِ ، يشقُّ القطارُ الظلامَ الدامسَ وسطَ خطوطِ السككِ الحديديةِ ، تشتدُ العتمةُ داخلَ العربةِ ، فإذا بالقطارِ يبطئ شيئاً بشيءٍ ، انتبهت لأنظرَ من النافذةِ أينَ وصل بنا القطارُ ، فلا أرى سوى فضاءٍ مظلمٍ يعمُّه السكونُ المطبقُ ، تقفُ العربةُ بمحاذاةِ رصيفِ محطةٍ مهجورةٍ يغطيها الرُكامُ ، فما أن توقفَ القطارُ حتى جذبت مسامعي جلبةٌ وأصواتٌ تملأ رصيفَ المحطةِ المهجورةِ ، أجدُ العديدَ من الركابِ وقد تحلقوا ينبعثُ من وسطِهم ضوءُ نارٍ...

**20- ( ميدوسا )**

ما كاد " حسين " يمسكُ بهاتفِه حتى وجد الأنباءَ تملأُ المواقعَ ، تعلنُ عن انتشالِ آثارٍ غارقةٍ في مدينةِ الإسكندريةِ ، فيقررُ مشاهدتَها على أرضِ الواقعِ ، وما أن وصل لقلعةِ قايتباي ، حتى توجه لموقعِ الكشفِ الآثاري خلفَ القلعةِ ، المكانُ يعجُ بالجمهورِ يتابعون الروافعَ ، وقد تعلقت فيها التماثيلُ التي تعودُ لزمنِ الحضارةِ الإغريقيةِ في الإسكندريةِ ، باغتهم الغروبُ ، لفت انتباهَ "حسين" رأسٌ لتمثالٍ ، انتفضُ الجميعُ لظهورِه ، يتسابقُ المصورون لالتقاطِ صورٍ له ، يقفُ حسين مشدوهاً ، يتساءلُ :

- رأسُ مَنْ ؟!

يأتيه الجوابُ سريعًا من أحدِهم :

- رأس " ميدوسا "

يمرُ الوقتُ ، يدخلُ الليلُ ، ينصرفُ الجميعُ ، يسيرُ حسين على ممشى البحرِ ، وقد شغله التفكيرُ في أمر رأس " ميدوسا" فإذا به يرى رجلاً بلحيةٍ بيضاءٍ كالقطنِ ، يجلسُ على إحدى البلوكاتِ ، يعتمرُ قبعةَ قبطانٍ ، ينفثُ دخانَ غُليونِه ، وما أن انتبه لوجود حسين حتى رفعَ قبعتَه يحيه بابتسامةٍ يغلفُها الودُ ، مما شجع حسين على الاقترابِ منه :

- مساءُ الخيرِ

- مساءُ النورِ

يفهم حسين على الفورِ من لكنة الرجل أنه أجنبيٌ يجيدُ التحدثَ بالعربيةِ فيبادرُه :

- لابدَ وأنك حضرت ، لتشاهدَ الكشفَ الآثاريَ ؟

- أكيدٌ ، كلُ الجاليةِ اليونانيةِ في الإسكندريةِ ومصرَ كلِها تهتمُ للحدثِ

- هل تعرفُ رأسَ الــ " ميدوسا " التي انبهر الجميعُ لانتشالِها من البحرِ ؟

- نعم .

- لقد لاحظت صورةَ الرأسِ على غلافِ الكتابِ الذي إلى جوارِك .

- فعلاً هذا كتابٌ يونانيٌ عن أسطورةِ " ميدوسا "

- وهل لتلك الرأسِ أسطورةٌ ؟!

- يمكنُني أن أقصَها عليك إن كانت لديك الرغبة .

- يسعدُني ذلك طبعًا .

يعتدلُ الرجلُ في جِلستِه ، يفترش حسين البلوكَ لجوارِه فيضعُ الرجل قبعتَه ، وقد ترك بداخلِها سلسلةً فضيةً يتدلى منها رأسُ حيةٍ . ينفثُ الرجل دخانَ غُليونِه ، ويبدأُ الحديثَ :

- " ميدوسا " واحدةٌ من أكثرِ الشخصياتِ شهرةً في الأساطيرِ اليونانيةِ القديمةِ كانت فائقةَ الجمالِ لها شعرٌ ذهبيٌ لا مثيلَ له ، وكأنها وُلِدَت لتأسرَ قلوبَ الرجالِ ، ووفقاً لما جاء في الأسطورةِ أصبحت كاهنةً في معبدِ الإلهةِ " أثينا " وألزمتها " أثينا " العذريةَ الأبديةَ .

- تبدو أسطورةً رائعةً . شوقتني

- صبراً .. فأحياناً يكونُ الجمالُ لعنةً

- كيف ؟

- إن جمالَ " ميدوسا " الطاغي دفع " بوسيدون " إلهُ البحارِ أن يظهرَ في صورةِ إنسانٍ لــ " ميدوسا " في معبدِ " أثينا " وقد أعمتُه الشهوةُ ، فأخذها بالقوةِ ، ودنس معبدَ " أثينا " ، وما إن علمت " أثينا " بهذا حتى غضبت ؛ فرأت أن " ميدوسا " مذنبةٌ بما حدث من تدنيسِ معبدِها وليس " بوسيدون " ، فجمالُ " ميدوسا " أغواه والذنبُ ذنبُها وليس ذنبَه .

- كيف ذلكَ ؟ وهل تُلامُ النعجةُ على افتراسِ الذئبِ لها ؟ أي ذنبٍ اقترفته " ميدوسا " لترى " أثينا " أنها المذنبةُ وليس " بوسيدون " ؟!!

- المهم . عاقبتها " أثينا " بتحويلِها إلى " جورجونة " نصفُها الأسفلُ جسدُ حيةٍ سامةٍ ، و نصفُها البشري تكسوه بشرةٌ بشعةٌ ، وقد نمت لها مخالبٌ ، وبرزت لها أنيابٌ ، وتحول شعرُها الذهبي إلى ثعابينَ سامةٍ لا تتوقفُ عن التلوي والفحيحِ ، وما أن تنظرَ لأي شخصٍ بعينيها الحمراوين حتى يتحولَ إلى تمثالٍ حجري ، ومنذ ذلك الوقتِ صارت " ميدوسا " أسطورةَ الرعبِ والفزعِ المخيفةَ .

- أسطورةٌ عجيبة فعلاً .

فجأة ينتفضُ الرجل ، ويتوجه صوبَ البحرِ في الظلامِ مسرعاً ، وكأن شيئاً ما يجذبُه بشدةٍ وهو يقولُ :

- سأوافيك حالاً .

مرَّ الوقت وطال غيابُ الرجلِ ، يزداد قلقُ حسين ، يدققُ النظرَ ، يرهفُ السمعَ لكن لا أثرَ للرجل ، ينتبهُ حسين للكتابِ تجذبُه صورةُ " ميدوسا " على الغلافِ ، يتجنب النظر في عينيها ، يقلبُ في صفحاتِه ، و قد كُتِبَت باليونانيةِ ، فيكتفي بصورِ " ميدوسا " المخيفةِ ، يستديرُ ؛ ليمسكَ بقبعةِ القبطانِ ، فيجدُها تقطرُ ماءً ، وكأنه انتشلها للتو من البحرِ ، يتركُها مكانها ، يمسكُ بالسلسلةِ الفضيةِ يتأملُها . يتدلى من السلسلةِ رأسُ حيةٍ لها عينان زجاجيتان حمراوان ، وكأن الحياةَ قد دبت فيهما ، تسري في بدنه القشعريرةُ ، ويشعرُ بجلدٍ باردٍ تلمسُه يداه ، يلتفتُ مذعوراً ليس في المكانِ غيره ، يتملكُه الخوفُ ؛ لاسيما الوقت قد قارب على منتصفِ الليلِ ، يخترقُ مسامعه فحيحُ حياتٍ ؛ ينتفضُ ، ويتلفتُ حوله ، فإذا بالسلسلةِ وكأنها حيةٌ تتلوى في كفه ؛ فيرميها من يده ؛ يبتلعُها البحرِ ، يغادرُ المكانَ من فورِه غيرَ عابئٍ بأشياءِ الرجلِ ، يسرعُ بالعودةِ لمنزله لا يلتفتُ خلفه ، وما إن وصل حتى وجد أمامَ المصعدِ امرأةً يُنطِقُ جمالُها الحجرَ الأصمَ ، ترميه بنظرةٍ جعلته ينسى تماماً كلَ ما يعتريه من اضطرابٍ ، تحييه بابتسامةٍ كلُها ودٌ فيحييها بابتسامةٍ متسائلاً :

- أ تسكنين هنا ؟!

- استأجرتُ شقةً في الدورِ الأخيرِ بالأمسِ .

- مرحباً بك .

وما أن تحرك المصعدُ ، حتى لفت انتباهه شعرُها الذهبيُ ، الذي ينسدلُ في تناغمٍ يضفي إلى جمالِها جمالاً ، وإذا به وقد لفتته ذاتُ السلسلةِ الفضيةِ تتدلى على صدرِها ، وهمَّ أن يسألُها فإذا بالتيار الكهربي ينقطع فجأة ، ويعلقُ المصعدُ بينَ الطوابقِ ، يحاولُ حسين أن يفتحَ كشَّافَ هاتفه محدّثاً إياها :

- لا عليك لا تقلقي سرعان ما يعودُ التيارُ .

لكن الهاتفَ لا يعملُ ، ولا يسمعُ للمرأةِ صوتاً ، يشعرُ بأنفاسٍ باردةٍ على خده ، يعتريه الهلعُ ، وبيدٍ مرتعشةٍ يحاولُ تشغيلَ الهاتفِ ؛ تلمسُ يديه جلداً بارداً ، يسمع فحيحُ حياتٍ ، وشيءٌ ما يلتفُ حولَ ساقه ، ينتفضُ فإذا بعينين حمراوين تبزغان في الظلامِ ؛ يصرخُ صرخةً مدويةً ؛ ليعودَ التيار فجأةً فيجد نفسه وحيدًا في المصعدِ ، يسقطُ مغشياً عليه ، وما أن استفاق حتى وجد ابنه وقد أسنده ، يمسحُ على وجهه بماءٍ .

- أكيد ضغطُك قد انخفض يا أبي ، ألم تتناولْ دواءَك اليوم ؟

يرفعه ابنه ، يدخلُه حجرته ، يحاولُ أن يستوعبَ ما حدث ، يناوله ابنه كتابًا ؛ يعتدلُ في جِلسَته تتملكُه الدهشةُ :

- إنه كتاب ميدوسا !!

- أحضره رجلٌ ذو لحيةٍ بيضاءٍ كالقطنِ يعتمرُ قُبعةَ قبطانٍ قال أنك نسيته عندَه ..

ما إن تمكن حسين من السيطرةِ على نفسه ، وأمسك بالكتابِ ، حتى سقطت من الكتاب ذات السلسلة الفضية ، تتدلى منها رأسُ الحيةِ بعينين زجاجيتين حمراوين وكأن الحياةَ قدْ دبت فيهما .

## 21- ( مقهى كوم الدكة )

انتهى حفلُ فرقةِ الموسيقى العربيةِ لإحياءِ ذكرى فنانِ الشعبِ " سيد درويش " خرج سعيد من ردهةِ المسرحِ إلى شارعِ " فؤاد " أحدِ أقدمِ شوارعِ الإسكندريةِ ، يسيرُ محلقاً في سماءِ النغمِ الأصيلِ ، ساقته أقدامه إلى حي " كوم الدكة " المعروفِ بطرازِه المعماري النابضِ بالحياةِ والثراءِ الثقافي كونَه محلَ ميلادِ الفنانِ " سيد درويش " حيث الحارةِ الشعبيةِ التي تمثلُ كنزاً بما تحويه من حياةِ البسطاءِ الذين يحملون قيمَهم ومبادئهم يتحدون في عناد فقرَهم ومعاناتهم ، وما أن تدخلَه حتى تشتمَ عبقَ الحارةِ الشعبيةِ ، يتوغلُ سعيد إلى جوفِ الحي القديمِ ، الشارعُ يلتفُ في شكلٍ متعرجٍ يشقُ الحواري والأزقةِ الضيقةِ ، تتلاصقُ البيوتُ إلى بعضِها تتحدى صروفَ الزمانِ الذي يحاولُ أن ينالَ منها ويتركُها حطامًا وتأبى إلا أن تكونَ شاهدةً على

الزمنِ الجميلِ ، فإذا بشمعةٍ تعكسُ ضوءها الخافتَ في جوفِ الظلامِ على ما يبدو أنَّه مقهى قد خلا من روادِه لتأخرِ الوقتِ وانقطاعِ التيارِ ، تلحُ على سعيد الرغبةُ العنيدةُ ليرتشفَ القهوةَ ، تعتريه طاقةٌ توقدُ جذوة عشقه لمثلِ تلك الأماكنِ ، فما أن جلس حتى طافت عيناه تتفحصُ المقهى لتقعَ على تابلوه لصورةِ " سيد درويش " إلى جوارِها راديو خشبي قد بات من التاريخِ ، فإذا برجلٍ مسنٍ تبدو عليه آثارُ الزمنِ الذي قد نحت بأناملِه تجاعيدَ وجهِه يقاطعُه متسائلاً :

• ماذا تشرب ؟

• قهوةٌ مضبوطةٌ من فضلِك .. يبدو أن المقهى خاليٌ من الزبائنِ ( قالها سعيد للقهوجي )

يرمقُه القهوجي وقد علا وجهَه ابتسامةٌ باهتةٌ وبصوتٍ غلفته المشقةُ والإرهاقِ يجيبُ :

• عند انقطاع التيارُ الكهربي تكنْ البيوتُ خيرَ ملاذٍ لاسيَّما الأجواءُ الليلةَ شديدةُ البرودةِ

• الحقُ معك .

ينصرفُ الرجل غيرُ بعيدٍ يُعِدُّ القهوةَ ، أشعلُ سعيد سيجارة رافعاً صوته قليلاً ؛ فيتسنى للرجل سماعه :

• ما زال الحيُ على حالِه القديمةِ محافظاً على طرازِه المعماري يشعُّ منه عبقُ الزمنِ الجميلِ زمنِ الشيخِ " سيد " . جاذبيةُ الحي لا تُقاومُ .

• بيتُ " سيد درويش " ما زال موجوداً غيرُ بعيدٍ من هنا ، لكنَّ الزمانَ قد نال منه وتركه حطاماً

• لابدَّ أن تمتدَ يدُ الرعايةِ إلى مثلِ تلك الأماكنِ التي تحملُ ثراءً ثقافياً .

• نأملُ ذلك

وما إن وضع القهوةَ أمامه حتى جلس على كرسي تحتَ الراديو القابعِ على رفٍ ، وقد أسند رأسَه إلى راحتِه يحركُها وكأنه يستمعُ لما يبثُه الراديو ، ولكنَّ البثَ منقطعٌ ؛ لم يعُدْ التيارُ بعدْ ، ربَّما يدندنُ بشيءٍ ما ؛ يمنعُه السكونُ المطبقُ أن يرفعَ صوتَه فيفصحَ عمَّا يدندنُ به ، تطوفُ عينا سعيد في المقهى ، تداعبُ الريحُ الباردةِ لهبَ الشمعةِ فتهتزَ ويشحَ ضوؤها ، يرى الرجل وقد بدأ يهزُّ رأسَه وكأنَّ الأنغامَ تداعبُها ، فجأةً تقتحمُ المقهى هبةُ ريحٍ لتطفئَ الشمعةَ ؛ يسودُ الظلامُ المعتمُ المقهى ، يشعرُ سعيد

بأنفاسٍ بجانبه تفوحُ منها رائحةُ التبغِ ، يلتفت مضطرباً فلا يجدُ أحداً لجواره ، وفجأةً يعودُ البثُ إلى الراديو ، يصدحُ بأغنيةٍ للشيخِ " سيد " تتملكُه الدهشةُ والريبةُ

- التيارُ لم يعدْ بعدْ كيف عاد البثُ ؟!!!

وكأنه يكلمُ نفسه ، يبحثُ عن الرجلِ فلا يجدُه ، وإذا به وحده في ظلامٍ دامسٍ يلفُّه الصمتُ ، يعتريه القلقُ والخوفُ ، تعودُ الأنفاسُ الحارةِ تلامسُ خده ، وفجأة تلمسُ كف سعيد يداً قد كساها شعرٌ كثيفٌ ؛ ينتفضُ فزعاً يرتعدُ جسده ينادي على الرجلِ ربَّما كان في الخارجِ . لكن لا مجيبَ ، وما أن همَّ بالاستعدادِ لمغادرةِ المقهى حتى وجد الشمعةَ وقد أضاءت وحدها ، و رجل كث اللحيةِ يجلسُ وحيداً ينفثُ دخانَ غُليونِه يرمقُه بعينين جاحظتين ؛ يصيبُ سعيد الارتباكُ من هولِ نظراتِه المفزعةِ. يسأل نفسه:

- متى دخل ؟!! لم أشعرْ به .

ترتعدُ فرائصه يحاولُ السيطرةَ على نفسِه ؛ ليبدو متماسكاً ، يتساءلُ مضطرباً :

- أينَ القهوجي ؟

يشعرُ سعيد بالأنفاسِ ذاتِها تفوحُ منها رائحةُ التبغِ قريبةٍ منه ، يلتفت في ذعرٍ ليجدُ الرجلَ يجلسُ بجواره يرمقُه بعينين متحجرتين ؛ يقفُ مذعوراً يدفعُ المنضدةَ مسرعاً للخارجِ ؛ تتعثرُ قدماه في حجرٍ ؛ فيطيح أرضا ، عندئذٍ عاد التيارِ ، وتغرقُ أعمدةُ الإنارةِ الحارةَ ضوءاً ؛ يحيلُ المكانُ ظهراً ، يجدُ سعيد نفسه وسطَ ركامٍ لحريقٍ قديمٍ نال من المكان فجعله حُطاماً ، تصعقه المفاجأةُ فمع من كان يجلس ويتحدث ؟!

يسرعُ الخطو يتلفت خلفه مِراراً حتى وصل إلى مبنى المطافي .

## 22- ( **القلب الأورجواني** )

في تلك الليلةِ الباردةِ بعد نهايةِ النوةِ ، ؛ أقفُ عندَ البحرِ ، وإذا بسيارةٍ ذات موديلِ كلاسيكي عريقِ تقفُ أمامي ، ينزلُ منها رجلٌ قد خالط سوادَ شَعرِه اللامعِ بعضُ الشيبِ ، يرتدي حُلةً أنيقةً ، وكأنه قد خرج للتو من فيلمٍ " أبيض وأسود " ، يسيرُ وحيداً على الكورنيش ، يرمي البحرَ بنظراتِه ، تلفتُني أناقتُه ، تبهرُني سيارتُه ؛ والتي لا تزال على حالِها ، يتمددُ خيالي بعيداً لأجدني داخلَ فيلمٍ " أبيض وأسود "

أقودُها ، وإلى جواري إحدى فاتناتِ سينما الزمنِ الجميلِ ، وما إن عدت لواقعي حتى استدرت للرجلِ فلم أجده ، تبحثُ عيناي عنه ، فإذا به على الشاطئِ الرملي لا يتحركُ ، يتملكني الفضولُ ، أتابعُه عن كثبٍ ، يمرُ الوقتُ ، أتفحصُ جمالَ السيارةِ ، فإذا به إلى جواري يرمقُني ؛ يعتريني الارتباكُ فأبادرُه :

- رائعةٌ تلك السيارةُ

- شكراً

- مثل تلك السياراتِ تظلُ محتفظةً برونقِها ، مهما مرت السنواتُ عليها

- لا أخرجُ بها كثيراً إلا في مثل ذلك الوقتِ ؛ فتكون الطرقُ خاليةً

- لك كلُ الحقِ ، تستحقُ أن تحافظَ عليها

يلقي بناظريه على الطريقِ ، يغلفُ عينيه حزنٌ ، تهربُ دمعةٌ منهما ، أحدثُه :

- كثيراً ما تطلعتُ أن أمتلكَ سيارةً " فورد "

يمسحُ دمعتَه برفقٍ وبصوتٍ هامسٍ حزينٍ :

- إن الحياةَ تأخذُ الكثيرَ لقاء تلك النعمِ العاديةِ للغايةِ التي يمكنُ أن تقدمَها للإنسانِ

تشعرُني كلماتُه بالحرجِ :

- أنا لا أحسدُك

ترتسمُ على وجهِه ابتسامةٌ ، يعلوها حزنٌ دفينٌ لا يستطيعُ إخفاءَه :

- أرجو ألا تكونُ كلماتي سببت لك ضيقاً ، إنما أقصدُ بها شيئاً آخر تماماً ، وعلى كلٍ تستطيعُ أن تركبَ معي ؛ نتنزه قليلاً بالسيارةِ إن لم يضايقْك عرضي هذا

لم استطعْ مقاومةَ إغراءِ عرضِه وبصوتٍ مرتبكٍ

- أخشى أن يضايقُك فضولي

- أبداً .. سيكونُ من دواعي سروري

بفرحةٍ غامرةٍ أفتحُ بابَها لأجلسَ فيها ، فأشعرُ بالفخامةِ أتتبعُ بعيني كل تفاصيلِها ، يخترقُ أنفي عطرُ Youth Dew النسائي الذي يخطفُ الألبابَ ، يتسللُ إلى مسامعي صوتُ أنينٍ خافتٍ خلفي ، أنظرُ في المرآةِ مذعوراً ، استدرتُ فلم أجد شيئاً ، وما أن اعتدلت فإذا بالسيارةِ وقد انطلقت ، والرجلُ إلى جواري يرمقُني متسائلاً :

- هل يزعجُك شيءٌ ما ؟

ألتفتُ خلفي لا شيءٍ في المقعدِ الخلفي ، فلربما يُخيلُ إليّ ، فقد انتصف الليلُ ، ولم أنمْ منذ الصباحِ الباكرِ فأجيبُه مضطرباً :

- أبداً لا شيء

تقع أمامي ورقةٍ مطويةٍ أقبضُ عليها فيلتفتُ إليَّ فجأةً :

- تلك إحدى خواطري كتبتُها

- أتكتبُ الشِعرَ ؟!

- أبداً .. مجردُ خواطرٍ أدونُها

- هل يضايقُك إن قرأتها ؟

- أبداً

الورقةُ تبدو قديمةً قد استحالت للاصفرارِ تحت الخاطرة توقيع باسم ( إلهامي ) :

- إلهامي .. هذا اسمُك ؟

- نعمْ

- كلماتٌ رشيقةٌ تنمُ عن عاطفةٍ مضطرمةٍ بها شجن .

يصمتُ إلهامي فجأةً ، تلمعُ عيناه ، فتفر دمعةٌ منه ، يحاولُ جاهداً أن يتماسكَ ، يبدو على قسماتِ وجهِه الألمُ ، أختلسُ النظرَ إليه ، فإذا بشفتيه قد صبغتهما زرقةٌ داكنةٌ ، يتوقفُ بسيارتِه إلى جانبِ الطريقِ ، يمسكُ بذراعِه الأيسرِ بشدةٍ ، يعتريني القلقُ والارتباكُ :

- هل تعاني من شيءٍ ما يا أستاذ إلهامي ؟

- من فضلِك هل يمكنُك القيادةَ ؟

- أليس من الأفضلِ أن نذهبَ لأقربِ مستشفى ؟

- الأمرُ لا يستحقُ ، فقط عد بي للڤيلا

وما إن انطلقت أقودُ السيارةَ ، حتى فاح داخلَ السيارةِ ذات العطرِ المميزِ ، واخترق مسامعي صوتُ الأنينِ ، يعتريني الاضطرابُ ، أحاولُ اختلاسَ النظرِ في المرآةِ ، يخيلُ إليَّ أن عينين تلمعان في ظلامِ المقعدِ الخلفي ، فأناديه بصوتٍ مرتعشٍ :

- أستاذ إلهامي من فضلِك ، صفْ لي الطريقَ

بصوتٍ يعتصرُه الألمُ :

- ادخلْ الشارعَ الضيق بجوارِ قصرِ " عزيزة فهمي " قُربَ كليةِ الفنونِ .. " قيلا إلهامي "

أقودُ السيارةَ مضطرباً ، أرهفُ السمعَ ، أختلسُ النظرَ في المرآة مذعوراً ، العطرُ ذاته يزدادُ ، وصوتُ الأنينِ الخافتِ ينبعثُ من خلفي ، يتملكُني الاضطرابُ

- ها هي القيلا يا أستاذ إلهامي

- من فضلِك ادخلْ بالسيارةِ للحديقةِ

يستندُ إليَّ ، يعمُ الصمتُ المكانَ ، يسودُ الظلامُ كلَ الأرجاءِ ، يفتحُ البابَ فإذا بالبهوِ معتمٌ ، يشيرُ إلى كرسي لجوارِ مدفأةٍ

- من فضلِك على المدفأةِ شمعدانٌ أَوقِد شمعاتِه ، يبدو أن ثمةَ انقطاعٍ في التيارِ الكهربي

أوقدتُ الشمعاتِ ، تقعُ عيناي على " بورتريه " زيتي لفاتنةٍ ، تتدلى على صدرِها المرمري سلسلةٌ يتوسطُها قلبٌ أورجواني ، وقفت مشدوهاً لجمالِها الفتانِ ، ما إن تأملت عينيها حتى سرت في جسدي قشعريرةٌ ؛ أشعرُ بأنفاسٍ يفوحُ منها العطرُ ذاته ، أنتفضُ مذعوراً :

- أستاذ إلهامي .. لمن تلك الصورةُ الزيتيةُ ؟

- حلمٌ لم يتحققْ

- حبيبتُك ؟

يومئ برأسِه المثقلةِ وقد وضع راحتَه على قلبِه

- ماذا تقصدُ بـــ" لم يتحققْ " ؟

- إن الكلماتِ لا يمكنُها أبداً أن تخففَ ما في قلبِ الإنسانِ ، الصمتُ وحدَه قادرٌ على فعلِ ذلك

- الصمتُ قد يقتلُ أحياناً يا صديقي ، أم يضايقُك أن أدعوك صديقي

- ذلك يسعدُني ؛ ربما لو كان لي صديقٌ مثلُك آنذاك ، كنت تجاوزت ألمَ فُرَاقِها

- وما الذي فرَّق بينكما ؟

- على بابِ كليةِ الفنونِ الجميلةِ كان لقاؤنا الأولُ حينَ رأيتها مثلَ الفراشةِ ، تحاولُ حمايةَ لوحتِها من المطرِ، فعرضت عليها أن تركبَ السيارةَ كي أقومَ بتوصيلِها إلى بيتِها في " الشاطبي " ، حيث التقيتُك الليلة فلم تجد حَرجاً في الركوبِ ، حيث أنني

أكْبُرُها في العمرِ كثيراً ، وجدت فيها شباباً ضاع مني في غربةِ الحياةِ ، صرت أتصنعُ الصدفَ كي ألقاها ؛ فأقومُ بتوصيلِها ، لا أطيقُ أن يمرَّ يومٌ لا ألقاها ، فكانت زهرةً تفوحُ عِطراً

فجأةً تعتريني الدهشةُ ، يحوطُ بي ذات العطرِ ويزداد

- تسيرُ بنا الأقدارُ ، تتعانقُ روحانا ، لا يمنعُنا فارقُ السنِ من قصةِ حبٍ واجهت الكثيرَ من تعنتِ الأهلِ ، حتى رضخ الجميعُ لإرادةِ الحبِ ، ويومَ ميلادِها أهديتُها قلباً أورْجُوانياً ، وذات يومٍ جلسنا حيث التقيتك الليلة ، وما أن همت لتعبرَ الطريقَ ، حتى صدمتَها سيارةٌ فحملتها في سيارتي منطلقاً للمستشفى لتلقى حتفَها ، وتموتُ بين يديّ .

- آسفٌ

- لا عليك .. انتهى حُلمي ولم يتحققْ ؛ آثرتُ العزلةَ ، تشتدُ بي العلةُ ، والصمتُ كان ملاذي

- أرجو ألا أكونُ قد أفسدتُ عليك ليلتَك أستاذ إلهامي

- بالعكسِ ليتني قابلتُك آنذاك

- سأمرُ في الغدِ للاطمئنانِ عليك إن لم يضايقْك ذلك

- سيكون من دواعي سروري يا صديقي

خرجت من بابِ الڤيلا تنجذبُ عيناي رُغمَ الظلامِ إلى السيارةِ تقفُ في فخامةٍ وعراقةٍ ، يشغلُني غرابةُ قصةِ الأستاذِ " إلهامي " ، أسيرُ لجوارِ السورِ الحديدي للڤيلا ، أرى عينين تلمعان في ظلامِ الحديقةِ ، يفوحُ العطرُ مرة أخرى ، يتملكُني الخوفُ ألتفتُ خلفي مِراراً ، وقد أسرعتُ الخطو إلى الشارعِ الرئيسي .

في اليومِ التالي توجهتُ إلى " ڤيلا إلهامي " ، فإذا بالبابِ مغلق بسلسلةٍ حديديةٍ يكسوها الصدأُ على بابِ حديدي متهالكٍ ، الحديقةُ قاحلةٌ ؛ غابت عنها الحياةُ تتوسطُها ذات السيارةُ الفورد لكن يصبغُها الصدأُ ، تعتريني الحيرة

- هل أكونُ قد أخطأتُ طريقَ الڤيلا ؟!

أستديرُ لأجدَ مكتبةً ، أتوجهُ إليها فإذا بداخلِها رجلٌ قد جاوز الستين بكثيرٍ

- أليست تلك " ڤيلا إلهامي " ؟

- بلى . هل أستطيعُ أن أقدمَ لك خدمةً ؟

- كيف ذلك ؟ !! .. أقصدُ .. منذ متى وهي مهجورةٌ ؟!

- كنت صبياً آنذاك ، أساعدُ أبي في المكتبةِ يومَ وجدوا صاحبَها جثةً هامدةً ، على كرسيه بجوارِ المدفأةِ ، ومنذ ذلك الوقتِ والقيلا مهجورةٌ لا يقربها أحدٌ .

أنصرفُ مشتت العقلِ ، أحاولُ استيعابَ ما حدث ليلةَ الأمسِ ، وفي الليلةِ ذاتِها تسوقُني أقدامي ، لأجد نفسي أتوقف حيث قابلت شبحَ إلهامي ، يعتريني ذعرٌ ممزوجٌ بالحزنِ ، فأجد في نفسي شجاعةً لأجلسَ حيث تقابلنا ، فإذا بعطرِ الـ " Youth Dew " يملأُ المكانَ ، أستديرُ ، فأجدُ سلسلةَ القلبِ الأورجواني إلى جواري .

## 23- ( شقة الطلبة )

ذات ليلة مقفرة من ليالي الشتاء الباردة دخلت الشارعَ الجانبي الضيقِ ، ألتفت للنافذةِ المغلقةِ في الأرضي ، يعلوها غبارُ السنين والإهمالُ ، تعودُ بي لذكريات

الجامعةِ ورفاقِ دربِ أيامِ الطلبِ الجميلةِ " شقة الطلبة " التي كنا نرتادُها للسهرِ مع رفاقٍ قد نزحوا من الأقاليمِ لاستكمالِ دراستِهم في الإسكندرية ، كم سمعت جدرانُ شقةِ الطلبةِ أحلامَنا وضحكاتِنا ترنُ ؛ تتراقصُ لها جدرانُها ، وفجأةً إذا بالنافذةِ تفتح لأجدَ أحداً ما يقفُ خلفَ النافذةِ ، تتملكُني الدهشةُ إنَّه " حمدي " أكيدٌ هو ، قد اعتصر الزمنُ نضرة شبابه ، لكن لم يستطعْ أن يخفي ملامحَه . إنَّه " حمدي " لا يمكنُ أن يخطئَ ظني ، أشيرُ له منادياً :

- حمدي ؟

يلتفتُ إليَّ ، يتفحصُني بناظريه ، أبادرُه :

- ألست حمدي ؟ بلطيم .. كلية الآداب .. ألا تتذكرني ؟

- أحمد .. كم اشتقت إليك .. تعال ادخلْ

بقلبِ طفلٍ اندفعت نحوَ البيتِ ، المدخلُ متهالكٌ يملؤه الركامُ بفعل السنين ، وما زال البابُ الخشبي للشقةِ كما هو ، ولكن يعلوه غبارٌ كثيفٌ ، تفوحُ رائحةُ عفونةِ وعطن ، بابُ الشقةِ يُفتحُ فإذا بـ " حمدي " قد استحال لجسدٍ نحيلٍ في ملابسٍ رثةٍ مُتسخةٍ ، من خلفِ عدساتِ نظارتِه الطبيةِ تجحظُ عيناه الزائغتان ، ترتسمُ على شفتيه ابتسامةٌ مضطربةٌ ، لا تخفي علاماتِ المرضِ ، يصافحُني بيدٍ مرتعشةٍ باردةٍ وبصوتٍ هامسٍ متهدجٍ

- أهلاً أحمد . سعيدٌ بلقائك بعد كلِ تلك السنواتِ يا صديقي

وما إن دخلت إلى الشقةِ حتى اعترتني الحسرةُ لما آلت إليه حالُ صديقي وحالُ شقةِ الطلبةِ ، كلُ شيءٍ يكشفُ عن عبثِ يدِ الإهمالِ بكليهما ، أحاولُ أن أجدَ مقعداً يصلحُ للجلوسِ، كلُ الأثاثِ متهالكٍ يغطيه الغبارُ ، أتأملُ المكانَ ، تعاودُني الذكرياتُ ، يقبع حمدي في جوفِ كرسي ضخمٍ متهالكٍ إلى جوارِه منضدةٌ تغطيها أعقابُ السجائرِ وبقايا شمعةٍ محترقةٍ إلى جوارِها أكوابُ شاي متسخةٌ ، يعلوها الغبارُ وكأنَّها لم تمسسْها يدٌ منذ سنين قد ضمَّ ركبتيه لصدرِه يقضمُ أظافرَه بتوترٍ شديدٍ ، تسرحُ عيناه ينظرُ للجدرانِ ، فأبادرُه متحسراً لحالِه المتردية

- ماذا فعلت بك الأيامُ يا حمدي ؟!

ينتبهُ لكلامي ، يستديرُ لي ودونَ كلامٍ يحاولُ رسمَ بسمةٍ متصنعةٍ ؛ يخفي بها آلامَ روحٍ معذبةٍ تبدو عليه جليةً ، تلمعُ عيناه الجاحظتان ؛ يعتريني الفضولُ أبادرُه :

- هل ما زلت تأتي من " بلطيم " وتستأجرُ ذاتَ الشقةِ ؟

- أنا مقيمٌ فيها

• منذ متى ؟!

• بعد أن انتهينا من دراستِنا ، قررت الاستقرارَ في الإسكندريةِ ، فاشتريتها بميراثي ، وتسلمت عملي في الإسكندريةِ

• كنت أظنك قد تزوجت من " نادية " وتقيم في " بلطيم " قصةُ حبكما كانت مضطرمةً شديدةَ الرومانسيةِ التي لا مآل لها إلا الزواج

تجحظ عيناه الزائغتان من خلف عدساتِ النظارةِ ، يعقدُ ما بين حاجبيه الكثّين ، ينكمشُ في نفسِه ، ترتعشُ شفتاه ، يحاولُ رسمَ الابتسامةِ على وجهِه الشاحبِ :

• قد فعلت كلَ شيءٍ من أجلِها ، فما إن جاءتها فرصةُ الزواجِ والهجرةِ تركتني أواجهُ آلامي بين زُمرةٍ من الأوغادِ والشامتين ، لم أحتملْ البقاءَ بينهم كثيراً

• كان بإمكانِك الارتباطُ بغيرِها ؛ فتنساها يا صديقي

• من يمسكُ الماءَ ليس مثلَ القابضِ على الجمرِ ، لم يكنْ من السهلِ نسيانُها ،

• آسفُ يا صديقي أن جددت آلامَك

• لا عليك .. فقد أحالوني للتقاعدِ المبكرِ ؛ بعد أن طالت فترةُ علاجي

• ومم تعاني ؟

يصمتُ فجأةً ، ويسرحُ بعيداً وكأنَّه لا يسمعني ؛ استأذنتُ وتوجهت للحمامِ ، مِفتاحُ النورِ مُعطلٌ حتى المياهِ مقطوعةٌ ، يلطخُ يدي الغبارُ الذي يغطي كلَ شيءٍ ، أنظرُ في مرآةِ الحمامِ فإذا بصديقي يُمسكُ شمعةً تعكسُ ضوءها على قسماتِ وجهِه فيبدو مريعاً ، يرمقُني بعينين جاحظتين زائغتين فاغراً فاه تبرزُ أسنانُه الصفراءُ ، أستديرُ مفزوعاً فلا أجدُه ؛ يعتريني الخوفُ أناديه :

• حمدي .. أين أنت ؟!

أعودُ لمكاني فإذا بالتيارِ قدْ انقطع ، تضئ الحجرةَ شمعةٌ مثبتةٌ على المنضدةِ بجوارِ نظارته الطبيةِ وقدْ تحطم زجاجُها ، يخترقُ مسامعي صوتٌ ما ، فإذا بكومةِ أوراقٍ علي الأرضِ تتحركُ ؛ تصدرَ صوتاً ، تلمحُ عيني شيئاً ما يتحركُ بينَ الأوراقِ ؛ يتملكُني الخوفُ ؛ أسرعُ إلى حجرةِ النومِ بحثاً عن " حمدي " كي أستأذنَه وأنصرفَ ، وما إن فتحت بابَ الحجرةِ ، فإذا بها رطبةٍ مظلمةٍ تفوحُ منها رائحةُ عفونةٍ لا تُطاقُ ، أنتفضُ مذعوراً ؛ أصطدمَ بجسدٍ يتدلى ، تلمسُ يدي أقدامَ إنسانٍ باردةٍ حدَ الثلجِ ؛ أزجُها تتأرجحُ لترتدَّ تصدمُني ؛ يملؤني الرعبُ ؛ أخرجُ مسرعاً ؛ تتعثرَ قدمي في ركامِ المدخلِ ؛ فتُشَجَ رأسي ؛ أهرولُ إلى الصيدليةِ على ناصيةِ الشارعِ ؛ يضمدُها الصيدلي وبسؤالهِ أجابني :

• هذا البيتَ مهجورٌ بعد أن شنقَ ساكنُه نفسَه ، واكتُشِفَت جثتُه بعدَها بأيامٍ ؛ بعدَ أن فاحت رائحتُها .

24- **( القبو)**

منتصف الثمانينيات شتاءً وفي ذلك الحي ذي الشوارعِ القاحلةِ على أطرافِ مقابرِ المنارةِ ، كلُ شيءٍ في ذلك الحي يبعثُ على الرهبةِ والفزعِ ، ولكن لضروراتِ العملِ الكلمة العليا ، لابدَّ أن يلتقي أستاذ حلمي بعامل العهدةِ ، ويتسلم منه المدرسةَ ، ليعد حجرةَ " الكنترول " استعدادًا للامتحاناتِ ، وصل أستاذ حلمي إلى بابِ المدرسةِ قُبيل الغروبِ وصوتُ الطيورِ ينبعثُ من بين الأشجارِ، مبنى المدرسةِ لا يختلفُ في تصميمِه عن جاراتِه من الڤيلاتِ المهجورةِ التي تنتشر في ذلك الحي ، يلفتُ انتباه حلمي كفاً ضخمةً تمتدُ من الداخلِ عبر فتحة في الباب الحديدي ؛ تفتحُ بابَ المدرسةِ ، وقد أحدث فتح الباب ضجيجاً يخرقُ الآذانِ ، فإذا برجلٍ في نهايات العقدِ الخامسِ يخالطُ سوادَ شعرِ رأسِه الشيبُ ، ترتسمُ على شفتيه ابتسامةٌ باهتةٌ وكأنَّه مخمورٌ .
حلمي قائلاً :

- أنا المراقبُ الأول
- مرحبًا يا أستاذ . تفضلْ

يجولُ حلمي بناظريه في المكانِ

- المدرسةُ فيما يبدو صغيرةٌ ، وعددُ الفصولِ قليلٌ
- معك حقِ يا أستاذ
- حلمي .. اسمي حلمي
- وأنا عادل مسئول العهدة
- يا عمُّ عادل .. أين ستكون حجرةُ الكنترولِ ؟
- كما ترى سعادتك عددَ الفصولِ بالكادِ يكفي اللجانَ ؛ فستكونَ حجرةُ البدرومِ هي المكانُ الوحيدُ للكنترولِ
- معقولٌ .. الكنترولُ في البدرومِ
- كلُ من جاء قبلَ سعادتك يستخدمُها
- ولكني الليلة قد أسهرُ قليلاً ؛ لأنتهي من بعضِ الأعمالِ ، وفي الغدِ نكملُ مع بقيةِ أعضاءِ الكنترولِ العملَ
- كما يحلو لك ، ولكنَّني سأنصرفُ ، وهذا هو مفتاحُ المدرسةِ تغلقُ بابَها وأنت منصرفٌ

مضى عمُّ عادل وحلمي وحده في حجرةِ البدرومِ لا أنيسَ له إلا الصمتُ ، ولكنَّ هذا الهدوءَ يساعدُ على إنجازِ العملِ ، فجأةً يخترقُ الصمتُ مواءُ قطةٍ ، فلا يبالي ويستمرُ

في عمله ، وفجأة يسمعُ دبيب أقدامٍ في الخارجِ ، يحدثُ نفسه ربَّما عاد عم عادل أو أرسل أحد العمال ؛ لينظفَ الفصولَ قبلَ حلولِ المساءِ . يعود لأوراقه يرتبُها كي ينجزَ أعمالَ الغدِ بسرعةٍ ، يمرُّ الوقتُ لا يشعرُ إلَّا والظلامُ يخيم في كلِ مكانٍ إلا من ضوءٍ حجرةِ البدرومِ التي يعملُ فيها ، يربكه ذلك الهدوءِ فقد انعدمت كلُ الأصواتِ وفجأةً يخترقُ مسامعه صوتُ مكنسةٍ على السُلمِ الحلزوني الذي يعلو البدرومَ ينادي حلمي :

• يا عم عادل .. يا عم عادل

لا أحدَ يجيبُ ، وصوتُ الكنسِ توقف ، وعاد الصمتُ . يحاولُ حلمي صعودَ السلمِ الحلزوني ، ولكنَّ العتمة شديدة ؛ يقفُ حلمي على أولِ السلمِ ، وبصوتٍ مرتعشٍ متقطعٍ :

• يا عم عادل .. يا عم عادل

يستدير فإذا بامرأةٍ بعينين واسعتين كعيني بومةٍ غلب بياضُ عينيها الظلامُ ، يرتعدُ جسده لهول المفاجأةِ

• أنا ماجدة العاملة

• أفزعتني يا ست ماجدة .. حل الليل وتستطيعين الانصرافَ على أن تأتيَني باكراً لإتمامِ العملِ

• حاضر

تنزلُ درجاتِ السلمِ لتمرَّ بجواره ، يشعرُ بحرارةٍ وكأنَّه يقفُ أمامَ لهيبِ نارٍ ، وتنزلُ ماجدة للبدرومِ ، وهو في أعقابِها مندهشاً ، يسألها :

• إلى أين يا ست ماجدة ؟!!

• القبو .

• تقصدي ذلك البابَ المغلقَ ؟ أليس ذلك بابَ مخزن ؟

• لا .. إنَّه قبوٌ نستخدمُه .

تفتحُ البابَ فيحدثَ نشيجاً يثيرُ الرعبَ . فعلاً قبو ممتدٌ يتوسطُه ضوءٌ خافتٌ ينتهي إلى عتمةٍ شديدةٍ ، تسيرُ إليها ، يمتصُّها الظلامُ المعتمُ ، يناديها فلا تجيبُ ، يشعرُ بذات الحرارةٍ جانبه ؛ يتملكُه الخوفُ ، يستديرُ ليخرجَ من ذلك القبو المقبضِ ، يجدُ ماجدة أمامه صامتةً مثل تمثالٍ جامدةَ القسماتِ ، ترمقُه بنظرةٍ تدق عظامه ؛ يتلجلجَ يحاولُ السيطرةَ على نفسه :

• كيف خرجت ؟!

• للقبو مخرجٌ آخر .

• كيف تستخدميه إنَّه مريعٌ ؟!

• هذه المدرسةَ كانت في الأصلِ مستشفى وهذا القبو كان مشرحةً للموتى يتمُّ فيها تجهيزهم للدفنِ - هكذا قالوا لنا -

يرتعدُ جسد حلمي خوفا ، ويقررُ الخروجَ مع ماجدة ، وللنهارِ عيونٌ أفضلُ من البقاءِ وحيداً في ذلك البدرومِ المقبضِ

• انتظريني أغلقُ بابَ حجرةِ البدرومِ ؛ وأنصرفُ معك

وما أن أغلق حلمي البابَ ، حتى اختفت ماجدة وكأنَّ الأرضَ انشقت وابتلعتها .
يسرع حلمي تجاه بابِ المدرسةِ يلفُّ الصمتُ المكانَ ، بالكادِ يجدُ موضعًا لقدمه لشدةِ الظلامِ ، تلفحه رياحُ الشتاءِ الباردةِ وفجأة يشعرُ بحرارةٍ رُغم برودةِ الجوِ ، يهرول للبابِ ؛ فيجده مغلقاً ، يبحثُ عن مفتاحِ القُفلِ فلا يجدُه ، لابدَّ أن يعودَ للبدرومِ ؛ فلربَّما تركه هناك ، وأمامَ مدخلَ البدرومِ ينقطعُ التيارُ الكهربائي يخرج مسرعا ، فإذا بعم عادل أمامه مفزوعا يقول :

• عم عادل .. أين كنت ؟!

• موجودٌ سعادتك .. رهنُ أمرِك

• لقد أكدُّت على ماجدة إتمامَ عملِها في الغدِ ؛ لأنَّ الوقتَ تأخر والجو باردٌ الليلةَ ، وقد تمطرُ في أي لحظةٍ

• تمام سعادتك .

يودعُه عادل بابتسامة باهتة ، يخرجُ حلمي للشارعِ ، صوتُ حفيفِ الأشجارِ يملأ المكانَ ، ينتشر الظلام إلَّا من ضوء هزيل تلقيه نوافذِ مصنعِ النسيجِ المقابلِ لبوابةِ المقابرِ ، يسيرُ حلمي إلى سور المصنع متخذاً من شارعِ المنارةِ مخرجاً للطريقِ الرئيسةِ .

في الصباحِ التالي يصل حلمي للمدرسةَ يقابل أعضاءَ الكنترولِ والمعاونين ، ومعهم رجلٌ أربعيني بجوارِه امرأةٍ تمسك بمكنسة

• أين عم عادل ؟ ! وهل وصلت ماجدة ؟

الرجلُ والمرأةُ ينظران لبعضِهما في صمت ودهشة

• عم عادل مات منذ زمنٍ ، وماجدة كانت عاملةً في المدرسة ماتت محترقةً في القبو .

**25- ( واحد القاهرة )**

ظرفٌ طارئ يلجئ فوزي للسفر ليلا إلى القاهرةِ ؛ ومن " محطةِ مصر " يبحث عن ميكروباص ، وعلى شريط التروماي يلتقي رجلاً ضخماً يرتدي معطفاً يزيدُ من ضخامتِه ، ينفثُ دخانَ سيجارتِه ، تعلو ملامحَ وجهِه علاماتُ غضبٍ ، ينادي بصوتٍ خشنٍ :

• واحد القاهرة

يومئ فوزي برأسه للرجل

• تفضلْ يا أستاذ .. اتبعني .

يدخل للحارةِ الضيقةِ المظلمةِ ، يتبعه فوزي ، فيلمح السيارةَ وبها ركابٌ ؛ وبركوبه اكتمل العدد ، ينطلق الرجل ، وبينما يتأمل فوزي من بجواره حتى وجد أنَّ كلَ من في الميكروباص ينظرون إليه ، وإذ فجأة يتوقف السائق أمام باب مشرحة " كوم الدكة " فيسألَه فوزي :

• لماذا توقفنا هنا ؟!

• سأحضر حقيبة من عاملِ المشرحةِ لتوصيلها للقاهرة

ينطلق الميكروباص في الطريقِ الصحراويةِ ، متجهاً صوبَ القاهرةِ ، وعند بوابةِ الإسكندريةِ أطفأ السائق أنوارَ السيارةِ ، وتنحى بالسيارة جانباً ، ومرَّ من البوابةِ لا يشعرُ به أحدٌ وكأنَّ الواقفين على البوابةِ لا يرون السيارةَ مطلقاً ، فيبادرَه فوزي متسائلاً :

• لم فعلت ذلك ؟!

لم ينطقْ الرجل ببنتِ شفه ، ونظر لفوزي في المرآةِ بعينين لامعتين كعيني ذئب ؛ استشعر فوزي الحرج ، فنظر لمن بجواره ، فلم يلتفت له أحدٌ وكأنَّ كلَ من في السيارةِ على رؤوسِهم الطير . يحاولُ التحدثَ إليهم ولا مجيب له ؛ يتوجه للسائق

• ألن تضئ النورَ ؟!

وبصوتٍ غاضبٍ مشروخٍ

• اهدأْ يا أستاذ .

ينتابُ فوزي الشكُّ في سلوكِ السائق الفظ ، حتى الركابِ كأنَّهم أصنامٌ . كما أن السيارة باردة جدا ، ومع الصمت والظلام تغفو عيناه ؛ فيغطَّ في نومٍ عميقٍ ، يفيقُ من شدة البرودة ، فإذا به مُلقَى داخل حطامِ سيارةٍ ميكروباص علاها الصدأُ أثرَ حريقٍ قديمٍ أتى على كلِ ما فيها ؛ فيفزع ، ويخرج منها مسرعا، يتلفت حوله في الرمالِ يسرعُ للطريقِ الأسفلت ، وقد غلب عليه الظن أنَّه وقع مع زمرةِ لصوصٍ خدروه وسرقوا ماله ، لكن النقود كما هي لم تنقصْ ؛ تتملكه حيرة شديدة يسيرُ على حافةِ الأسفلتِ فيلمح ضوء مصباح فيهرول إليه وعنده يجد رجلا يقفُ أمامَ إطاراتِ كاوتشوك باليةٍ ، في هذا الخلاءِ الرهيبِ ، تتصارعُ الأسئلةُ في رأسه ولا يجدُ تفسيرا لما حدث معه

• السلامُ عليكم

• وعليكم السلامُ ، هل من خدمة ؟

باضطراب يقول فوزي :

• أبداً ، كنت مسافراً في ميكروباص ..

فابتسم الرجلُ قائلاً :

• ووجدت نفسَك مُلقى في حطامِ سيارةِ محترقةِ ملقاةِ داخلَ الرمالِ إلى جانبِ الأسفلتِ

• نعمْ !! وكيف عرفت ؟!

• إنَّها سيارةٌ قد انفجر إطارُها منذ أعوام ؛ فانقلبت بركابِها ؛ واشتعلت فيهم النيرانُ ، لقد شاهدت الحادثَ بنفسي ، وفشلت في إنقاذِ الركابِ ، وكلُ فترةٍ نقابلُ شخصاً تحضرُه الأشباحُ إلى هنا ، يعلم الله متى يتوقفُ ذلك

يضطرب فوزي من هولِ ما يسمع :

• إنْ تكرمت سأجلسُ معك ؛ حتى الصباحُ ؛ وأعودُ مع أي سيارةٍ تمرُّ علينا .

• كما تحبُ

انشغل فوزي بالطريقِ ، فلمحُ ميكروباص قادما نحوه ، فيشير إليه

وما أن بدأ يهدئ من سرعته ويتوجه نحوه حتى اطمأنت نفسه ، فيستديرُ ؛ ليشكرَ الرجلَ ، فلا يجدُ سوى ظلام الصحراءُ الممتدةُ ، ولا أثرَ للرجل ولا للإطاراتِ الباليةِ ، يقفزُ للسيارةِ مفزوعا فيكلمه السائق بصوت غاضب مشروخ :

• ما بك يا أستاذ ؟

يلتفت فيجد السائقَ نفسَه الذي جاء معه .

26- **( درس خصوصي )**

يشقُ سكونَ الليلِ رنينُ هاتفه ، مكالمةٌ من مجهولٍ ، صوتٌ خفيضٌ متأنٍ ، يبعثُ على الرهبةِ والدهشةِ :

- ألو .. ؟
- أستاذ خالد ؟
- نعمْ . منْ مَعي ؟
- أرغبُ أن تشرفَني في منزلِي ؛ لتعطيَ ابنتي درساً .
- أين تسكنون ؟
- الإبراهيمية ، الشارعُ السدُ بجوارِ سورِ

نادي " اسبورتنج " المنزلُ رقم واحد ، الدورُ الأول

- غداً بعدَ العصرِ يناسبُكم ؟
- عُذرَاً .. أرجو أن يكونَ مَوعِدنا التاسعةَ مساءً
- ولكنه وقتٌ متأخرٌ لا سيما أننا في الشتاءِ
- هذا الوقتُ مناسبٌ لنا ، أرجو أن تقبلَه ، فابنتي في حاجةٍ إلى درسٍ للتقويةِ ، ولك ما تريدُ
- وهو كذلك .. التاسعةُ مساء الغدِ مَوعِدنا .
- مع السلامة

وبخ أستاذ خالد نفسه كيف يقبلُ هذا الموعدَ المتأخر ، وأجواءُ الشتاءِ صعبةٌ .

محدثا نفسه ( لو كنْت رفضت فلربما كان ذلك أفضلَ ، ستكون عودتي لمنزلي في ساعةٍ متأخرةٍ من الليلِ ، وفي مثل تلك الأجواءِ يصعبُ السيرُ في الشوارعِ ليلاً .)

وفي اليومِ التالي ، اشتدت النوةُ ، وانهمرت الأمطارُ سيولاً وعليه أن يذهب حَسْبَ الموعد المتفق عليه . يحاولُ خالد الاتصالَ تليفونياً ، ولكن هاتفَ السيدة غيرُ متاحٍ ، وما أن وصل للشارعِ السدِ ، فإذا بالظلام سيد الموقف ، والسكونُ المطبقُ يبسط يدَه على كلِ الأرجاءِ ، يتسلل خالد ببطءٍ ؛ يبحثُ عن المنزلِ .

ها هو في أخرِ الشارعِ السدِ ، مَدخَلَه واسعٌ مظلمٌ إلا من ضوءٍ خافتٍ ينبعثُ من حجرةٍ تحتَ سُلَّمِ البيتِ الخشبي . البيتُ فيما يبدو من البيوتِ العتيقةِ ، يتحسسُ بقدمه أرضيةَ المدخلِ ؛ ليبلغَ السُلَّمَ ، يشقُ السكونُ طقطقةَ خشبِ السُلَّمِ المهترئ ، يتمسكُ بعوارضِ السُلَّمِ ، ويصعدُ مُتعمِداً إحداثَ جلبةٍ بأقدامِه ؛ ليشعرَ منْ في الحجرةِ القابعةِ تحتَ السُلَّمِ بقدومِه ، ولكن للصمتَ هنا كانت الكلمة الأولى والأخيرة ، يحسُ وكأن يده لامست شيئاً ما ، تسري في بدنه قشعريرةٌ يرتعد بدنه ويرتفع لديه " الأدرنالين " ، تتلجلجُ قدماه على الدَرَجِ ، يصلُ لبابِ الشقةِ ، يطرقُ البابَ بيدٍ مرتعشةٍ ، تتلاحقُ أنفاسه محاولاً السيطرةَ على ارتعادِ فرائصه ، تُفتحُ شُرَّاعةُ البابِ ببطءٍ محدثةً نشيجاً يبددُ الصمتَ المطبقَ ، فإذا بها امرأةٌ ممسكةٌ بشمعدانٍ تعكسُ شمعاتُه ضوءاً على قسماتِ وجهِها فتبدو مريعةً ، تحاولُ بيدِها الأخرى لملمةَ شعرِها المُهوَشَ الذي يخالطُه بعضُ الشيبِ ، وكأنها نهضت من النومِ لتوِها ، تتفحصُه بعينيها الزائغتين . بصوتٍ مرتعشٍ متقطعٍ يحاول خالد لملمةَ شتاته

• أنا .. أنا .. مستر .. خالد

بابتسامةٍ باهتةٍ تقول السيدة :

• تفضلْ

ينفرجُ البابُ مُحدِثاً نَشيجاً جَراءَ الصَدَأِ ، وكأنه لمْ يُفتَح منذ وقتٍ بعيدٍ

• عُذراً لانقطاعِ التيارِ .. تفضلْ ستكون ابنتي جاهزةً حالاً

• تفضلي

تدلفُ المرأةُ إلى ممشى معتمٍ يسارَ الصالةِ التي تعجُ بأثاثٍ عتيقٍ ، يسمعُ بابَ حجرةٍ يُفتَح ، ويدورُ حديثٌ لا يستطيعُ خالد تمييزَ كلماتِه ، يتخللُ الحديثَ نحيبٌ مكتومٌ ، يشعرُ بحرجٍ شديدٍ ؛ فلربما الفتاةُ لا ترغبُ في وجوده ، فيتلهى بالنظرِ في المكانِ على ضوءِ شمعةٍ هزيلٍ ، فإذا بالسيدة أمامه ممسكةً بالشمعدانِ ، يبدو على عينيها آثارُ بكاءٍ ، تدعوه ليتبعها ، مكتفيةً بالإشارةِ بيديها نحوَ الممشى المظلمِ ، لا تنطقُ ببنتِ شفه ، ينتابه قلقٌ ممزوجٌ بالحَرَجِ ، فيتبعها مسلوبَ الإرادةِ ، تسبقُه عيناه لبابِ حجرةٍ معتمةٍ ، تدخلُ أمامه السيدة ينتشرُ ضوءُ الشمعدانِ يضيئُ الحجرة ، ليجدَ فتاة قابعةً على كرسي منزوٍ في ركنِ الحجرةِ ، مهندمةٌ هادئةٌ في جِلستِها ، ترمقُه على

استحياءٍ ، تضعُ المرأةُ الشمعدانَ على المنضدةِ إلى جوارِ الفتاةِ ، فتبدو له ملامحُ وجهِها الهادئةُ وحُسنُ هِندامِها ، تبادرُه السيدة بصوتٍ هادئٍ

• فلتبدأْ يا أستاذ خالد

• تفضلي

تغادرُ الحجرةَ ، والفتاةُ تكتفي بالنظرِ إليه بعينين متحجرتين لا تحيدُ عنه ، فيكسرُ حاجز اضطرابه بالدخولِ في موضوعِ الدرسِ مباشرةً ، ولمْ يفزْ من الفتاةِ بكلمةٍ واحدةٍ حتى ظنها بكماءً فيقررُ بينه وبين نفسه ألا يعودُ مرةً أخرى لهذا البيت ؛ فلا الفتاة تشجع ، ولا المكان مريح ، والموعدِ متأخر جدا . يمر الوقتُ متباطئاً يسودُه الصمتُ إلا من صوته وهو يشرحُ لفتاةٍ كتمثالِ الشمعِ ، يخالطُ صوتُ الأمطارِ صوته مما يزيدُ من ندمه أن يقبل ذلك الموعدَ المتأخرَ ، يتعجلُ الوقتَ أن يمرَّ كي يخرجَ من هذا البيت المقبضِ ، وما إن انتهى حتى همَّ مسرعاً للخروجِ عبرَ الممشى المظلمِ إلى الصالةِ فيجد السيدة في وجهه ، وكأن الفراغَ انشق عنها بشعرِها المُهوَشِ ، وعينيها الجاحظتين تحملقان في وجهه ، وكأنها تراه لأولِ مرةٍ ، يكاد حالُ لسانِها أن تسأله من أنت .

• لقد انتهيت يا سيدتي

• نفسُ الموعدِ الأسبوعُ المقبلُ ؟ !

• لا أظنُ .. عُذراً فالموعدُ لا يناسبُني

يبدو على وجهِها الوجومُ والحزنُ ، مما يشعره بالحَرَجِ ، ولكنه عزم على عدمِ الحضورِ مرةً أخرى ، يتوجه خالد للبابِ ؛ حتى لا يترك مجالاً للكلامِ مع السيدة ، تناولُه ثمنَ الحصةِ ، يخرجُ يتلمسُ موضِعَا لقدمه على دَرَجِ السُلَّمِ المظلمِ ، لا يفارقُه وجهُ السيدة المريع ، وفجأةً تنشقُ الأرضُ عن رجلٍ ضخمٍ ينظرُ إليه بدهشةٍ ، يعلو قسماتُ وجهِه الارتيابُ وكأنه أمام لصٌ ، وبصوتٍ خشنٍ :

• نعمْ يا حضرت .. من أين تنزلُ ؟!!

• مِن تلك الشقةِ في الدورِ الأولِ

• مِنْ عِندَ السيدةِ " إيڤون " ؟ !!

• أنا مدرسُ ابنتِها

• غيرُ معقولٍ .. السيدة " إيڤون " مريضة نفسية منذ ماتت ابنتُها محروقةً في الحمامِ ، ولا تفتحُ بابَها لغريبٍ أبداً مهما حدث ..

_____ تمت _____

المؤلف: سمير لوبه

smyrlwbh@gmail.com

01226119162

مواليد الإسكندرية ١٩٧٠

تخرج في كلية الآداب جامعة الإسكندرية

صدر له:

- كواليس مجموعة قصصية
- البحر بيضحك ليه مجموعة قصصية
- إحساس مجموعة قصصية

- المتاحة مجموعة قصصية
- قراءات إبحار في قراءات نقدية
- الوعد والمقسوم رواية
- الجندي الأخير في جيش سقنن رع مجموعة قصصية